

سلسلة الدراسات التربوية والنفسية
(٤)

سيكولوجية الصهيونية

منتدى سور الأزبكية

www.books4all.net

تقديم

أ.د. يسري دعبس

دكتور

د. عبد الفتاح المهدي

إستشاري الطب النفسي

الناشر

البيطاش سنتر للنشر والتوزيع

٢٤ برج عين شمس - البيطاش - اسكندرية

ت : ٤٨٤١٤٦٩ - ٤٣٥٢٣١٩



منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://www.facebook.com/books4all.net>

سلسلة الدراسات التربوية والنفسية

(٤)

سيكولوجية الصهيونية

الدكتور : محمد عبد الفتاح المهدي

استشاري الطب النفسي

تقديم

أ.د. يسري دعبس

الناشر

البيطاش سنتر للنشر والتوزيع

٢٤ عمارة برج عين شمس / شقة ٣

الإسكندرية : ٤٨٤١٤٦٩ / ٤٣٥٢٣١٩ / ٠٣

فاكس : ٥٨٣٧٢٥٣

- اسم الكتاب : سيكولوجية الصهيونية
- اسم المؤلف : د. محمد عبد الفتاح المهدى
- اسم الناشر : البيطاش سنتر للنشر والتوزيع
- اسم المطبعة : فجر الإسلام - الإسكندرية
- سنة الطبع : ٢٠٠١
- رقم الإيداع : ١٣٤٨٢
- التقييم الدولي : 9 - 19 - 5929 - 977

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا
كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا
خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ
وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا
جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَلِيُتَبَرُوا مَا عَلَوُا تَتِيرًا * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتُمْ
وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾

(سورة الإسراء : من الآية ٤ - ٨)

إهداء

إلى روح الطفل الشهيد

محمد الدرہ

الذى احترق جسده وهو فى حضن أبيه

بنيران العنصرية الصهيونية

تقديم

ظلت الديانة اليهودية، ولفترات طويلة من الزمن، تمثل المعبد الذى يحتفى به اليهود وينغلقون داخله إلى أن ظهرت حركة التنوير اليهودية فى القرن الثامن عشر، ونادت بضرورة الاندماج فى المجتمعات التى ينتشر فيها اليهود وأن يكون لهم دور فعال فى تلك المجتمعات، على أن ينحصر الدين والتدين كسلوك وشعائر داخل المنزل والمعبد..

ثم ظهرت الصهيونية كحركة علمانية تطرح الحل الواقعى -من وجهة نظرها- لجمع شتات اليهود الهائمين فى بلاد الله، بإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين، وبعد أن كانوا شعبًا بلا وطن، أصبحوا شعبًا لهم وطن، فى حين حدث العكس بالنسبة للفلسطينيين.

وفى هذا السياق لم ينتبه دعاة الصهيونية إلى الكم الهائل من المشكلات التى قد تواجههم فى تحقيق حلمهم الكبير، مثل قضية الصراع العربى-الإسرائيلى، الصراع بين الدينيين والعلمانيين، والصراع الطائفى والثقافى بين الإشكناز والسفارديم والمهاجرين الروس والإثيوبيين، وإشكالية الصراع بين العقائد المبنية على الأساطير والسياسة الواقعية المبنية على المصالح، وكذلك الصراع بين مركزية الشتات ومركزية إسرائيل وغيرها..

وإجمالاً فقد أدى كل ذلك إلى تمزق أو تشتت النموذج الإسرائيلى بين ثقافات وطوائف وقوميات لها خصوصياتها الثقافية والعقائدية، والفرقة فى التعامل على المستوى الداخلى بين اليهود المهاجرين لإسرائيل والرؤية المختلفة بين اليهود الغربيين والشرقيين إلخ، وانعكاس ذلك فى فرص الحياة والعمل والمركز والمكانة والدور.. إلخ. ناهيك عن المواقف المتصارعة حول ماهية هوية الدولة من حيث كونها كنعانية أم يهودية دينية أم يهودية علمانية أم إسرائيلية.

ولذلك فإن الهدف الرئيسى للصهيونية كحركة علمانية سياسية استعمارية هو إقامة المجتمع أو الدولة اليهودية الحديثة بعيدًا عن كل عثرات وقيود وعقد الماضى من مجتمع الطائفة اليهودية فى الشتات اليهودى، والمذابح التى تعرضوا لها فى روسيا خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ثم تعرضهم لكافة أنواع التعذيب الوحشى فى ألمانيا النازية من خلال إلقاءهم فى المحارق أحياء فى النصف الأول من القرن العشرين.

وفى مقابل هذا التعامل اللاأدمى والوحشى والاضطهادى لليهود فى دول

الغرب وروسيا، نجد أنهم نعموا بالعيش فى أمان وسلام وطمأنينة فى البلاد الإسلامية، بل منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، بالرغم من أنهم كانوا ينقضون العهود وطالما آمنهم أشرف خلق الله ورسول الحق رغم خيانتهم ومكائدهم له. وما يؤكد اندماج هؤلاء ودخولهم فى علاقات اقتصادية وتجارية وثقافية فى البلدان الإسلامية، العدد الكبير من اليهود الذين كانوا يعملون بالفن فى مصر والشام خاصة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، بالإضافة إلى تملك العديد من اليهود لكثير من المحال التجارية والمشروعات الاقتصادية الضخمة فى الدول العربية والإسلامية التى عاشوا فيها، ومشروعاتهم الضخمة الآن تحت ستار الشركات متعددة الجنسيات.

بناء عليه نجد أن العلاقة بين الصهيونية كحركة والديانة اليهودية قد تحددت معالمها منذ بداية الحركة الصهيونية على أساس تفعيل الجانب السياسى لكونه هو العامل المسيطر والفاعل مستقلاً عن الدين، مادام زعماء الصهيونية كحركة علمانية هم القادرين على تحقيق حلم الصهيونية فى إقامة الدولة اليهودية.

ولكى تفعّل الصهيونية وتدعم حركتها، أخذت بعنصر الدين اليهودى كستار حتى يمكنهم اجتذاب المهاجرين اليهود المتدينين غير العلمانيين من مختلف بقاع العالم، ولذلك أصبح الدين محجّم ولا يخرج عن دائرة التعبد داخل إطار الأسرة أو العائلة اليهودية، ولم يعد هو العامل الفاعل فى تنظيم وتفعيل الدولة اليهودية كما هو الحال بالنسبة للصهيونية كحركة علمانية.

وتأتى أهمية الكتاب الذى بين أيدينا فى كونه تناولاً غير مسبوق حول سيكولوجية الصهيونية، وهنا نجد المؤلف بمهارة عالم النفس والمعالج النفسى التحليلى يبرز بهدوء وبثقة وبزوى معالم ومحددات وسمات الشخصية اليهودية من خلال تتبع كافة المظاهر والأنماط السلوكية والتعبيرات الحركية والانفعالية والوجدانية فى إطار تتبعه المستمر عبر كافة وسائل الإعلام المرئى والمسموع لكافة التصريحات والتعليقات والأحاديث والندوات واللقاءات وقيامه، وفق أسس التحليل والعلاج النفسى، بتتبع محددات الشخصية من خلال ذلك.

فقد تناول فى الفصل الأول بعض الحقائق عن طبيعة النشأة وأصول التسميات، مستعرضاً طبيعة النشأة والتسميات واليهودية بين القومية والديانة والصهيونية.

ثم تناول الفصل الثانى سمات الشخصية الصهيونية، وهنا خرج إلينا هذا الباحث الجاد بمجموعة من الصفات والسمات الشخصية التى تأخذ فى طابعها سمات

ومحددات الشخصية القومية اليهودية، مثل سمات الإله وسمات اليهود، واليهود والأسطورة في حياتهم، التشوه (التشوش) الإدراكي، شعب الله المختار، عقدة الاضطهاد، العزلة، الهاجس الأمني كحالة إدراكية مرضية، الاغتراب، الصراع الطائفي، العنصرية، التعصب، صورة البطل، التحريف، المراوغة، والتي تبرز في أنماطهم السلوكية العدوانية والرغبة في التدمير والانتقام، واستخدام العنف والقسوة وتصعيد الأعمال الإرهابية وسفك الدماء، والسلب والنهب، واغتصاب العرض والمال، والغش والتدليس والخديعة وحياسة المؤامرات وتدبير المكائد.

... إلخ. تلك السمات التي أخضعها للاختبارات والمقاييس النفسية والسلوكية لحالات مرض البارنويا فكانت هذه نتيجة صائبة.

ثم تناول في الفصل الثالث الشخصية الصهيونية والاختراق الفيروسي مستعرضاً انعكاسات السمات الشخصية الصهيونية في الفعل والقول وطبيعة أنماطهم السلوكية وتفاعلهم وتعاملهم مع الآخر، مثل العداء للسامية وقتل الأنبياء والمصلحين ... جريمة باروخ جولدشتاين ... الحمايم والصقور

وعالج الفصل الرابع الصهيونية كحالة مرضية مستعرضاً رؤيته كمحلل نفسى لحالة التميز وسيكولوجية الأقلية مستنتجاً أنهم ليسوا سواء، ويقدم لهم الحل والعلاج ليصبحوا أسوياء.

والكتاب في مجمله محاولة جادة غير مسبقة في إطار تناولها العلمى والمنهجى حيث أخذ بالاتجاهات النظرية الموجهة لعلوم البحوث النفسية ومتوجة بالمختبرات العملية والتحليلات النفسية، مما جعلها تشكل في النهاية جهداً علمياً كبيراً تحتاج المكتبة العربية لمزيد منه في إطار فهم الصهيونية والمجتمع اليهودى من مختلف الجوانب الاقتصادية والسياسية والثقافية والأمنية والنفسية.. إلخ والله الموفق والمستعان

أ. د. يسرى دعبس

المقدمة

شهادة طبية

المقدمة

شهادة طبية

هذا الكتاب يهتم فى الأساس بدراسة الجوانب النفسية فى الحركة الصهيونية، وهو الجانب الذى أعتقد -على حد علمى- أنه لم ينل حقه من الاهتمام فيما كتب عن هذه الحركة، فعلى الرغم من كثرة الدراسات حول الجوانب السياسية والجوانب التاريخية والجوانب الدينية للصهيونية، إلا أن الجانب النفسى كان أقلهم حظاً.

ولقد جاءتنى فكرة الكتاب حين كنت أرقب -بعين الطبيب النفسى- سلوك المنتسبين والمتحمسين للحركة الصهيونية، سواء على الطبيعة أو على شاشات التلفاز من قادة سياسيين أو عسكريين أو جنود أو مستوطنين (مستعمرين)، فكانت تراودنى فكرة السلوك المرضى، ثم تتأكد هذه الفكرة مع متابعة ذلك السلوك الذى يخرج بوضوح عن سياق السلوك الإنسانى العام سواء فى تركيبته الفكرية الأسطورية أو فى آلياته أو ممارساته أو غاياته. وكنت أحاول جاهداً أن أستبعد هذه الفكرة وأتهم نفسى بشبهة التحيز، ولكن تداعيات الأحداث كانت تبرز بوضوح ذلك الجانب المرضى فى سلوك الإسرائيليين بالدرجة التى تجعل الصمت أمام هذه الظاهرة المرضية بمثابة خيانة للأمانة العلمية.

وعندما عدت إلى التراث الفكرى والدينى للحركة الصهيونية، وجدته مليئاً بالأساطير والإشكاليات التى تكون بناءً معرفياً شديداً الخطورة، ليس فقط على معتنقى هذا الفكر وإنما على المجتمع الإنسانى كله، فازددت رعباً وازددت إصراراً على تسجيل هذه الرؤية وهذه الشهادة الطبية رغم عزوفى الشخصى عن الدخول فى هذه المجالات خشية الاقتراب من مجالات السياسة التى لا أحبها ولا أحب التورط فى دهاليزها المظلمة، لذلك أنبه القارئ إلى أن الكتاب الذى بين يديه ما هو إلا تقرير طبى، ولذلك لا يصح استخدامه فى غير موضعه وهو المجال الطبى الذى يهتم بإبراز المظاهر المرضية بهدف علاجها، وليس بهدف التشفى أو النبذ أو التشهير.

ولست أهدف من هذا الكتاب خلق توجهات عنصرية ضد جنس أو دين، فالمشكلة هنا ليست صراعاً طائفيًا أو عرقيًا يؤدى إلى دمار الطرفين، وإنما نحن بصدد سلوك مرضى نعالجه أو نحاصره سواء صدر من هنا أو هناك، فالعدوان والتعصب والعنصرية سلوكيات مرفوضة سواء صدرت من مسلم أو يهودى أو مسيحي أو بوذى، فالعبرة هنا ليست بالشخص أو الجنس أو الدين، وإنما العبرة بالسلوك المرضى الذى يحتاج إلى تقويم.

ورغم تواضع مادة هذا الكتاب (على الأقل فى نظرى)، ورغم تواضع مكانة مؤلفه، إلا أننى كنت أشعر أننى أودى ما على وما أستطيعه نحو خطر أشعر أنه لا يقتصر على فلسطين أو المنطقة العربية، وإنما خطر يهدد إنجازات البشرية، ويعطل سعيها ويقوض مكاسبها التى حققتها فى مجالات الحرية وحقوق الإنسان والمساواة ورفض التعصب والعنصرية.

وأنبه القارئ (أيًا كان جنسه أو لونه أو دينه) أن ينظر فى نفسه أولاً ويتبع آثار ذلك السلوك الذى ننقده فى هذا الكتاب، وألا يسارع بإسقاط كل السلبات على الآخر وينسى حظه منها، فلا يصح أن يكون الطبيب أكثر مرضًا من مريضه. وأعلن للقارئ شعورى بالعجز أمام هذا المرض العضال وأطمئن نفسى إلى أن مسئولية العلاج لهذا السرطان الصهيونى تقع على عاتق المجتمع الإنسانى كله وليس على الأطباء وحدهم، وإذا لم ينهض المجتمع الإنسانى بهذه المهمة فسوف يدفع الثمن الذى دفعه فى الحرب العالمية الثانية (٤٥ مليونًا من القتلى) جراء سكوته على الفكر النازى العنصرى وهو فى بدايته.

وعلى الرغم من أننى كتبت بعض الصفحات فى هذا الكتاب ثم أخذتنى مشاغل كثيرة بعيدًا عنه، إلا أنه حدث إننى كنت أبحث فى موضوع العلاقة بين مستوى التدين ونوعيته وبين الصحة النفسية، ورحت أستعرض المقالات والدراسات المنشورة فى المجالات العالمية، فلفت نظرى كثرة الدراسات التى تتحدث عن الاضطرابات النفسية لدى اليهود فى إسرائيل، وكانت هذه بمثابة كشف رحت أسلطه على ذلك المجتمع الذى نشأ بطريقة غير شرعية فى أرض الرسائل السماوية السمحة، وعدت إلى تدقيق النظر فى ملاحظهم وانفعالاتهم وسلوكياتهم كلما سنحت الفرصة لذلك. وفى كل مرة كنت أكتشف ملامح السلوك العصائى فى قسَمات الوجه وحركات الجسم العصبية والمتشنجة خاصة لدى المتدينين المتطرفين منهم (وهم كثير فى هذا المجتمع)، وقد تعجبت من حركاتهم السريعة والمتشنجة أمام حائط البراق، الذى اغتصبوه وأسموه حائط المبكى، ولعل الاغتصاب والتسمية لهذا الحائط تشير من جوانب كثيرة إلى الجانب المرضى حتى فى العبادة على غير ما نلّمحه فى صلوات بقية البشر من الهدوء والسماحة والاسترخاء والطمأنينة، وكأن الإسرائيلى الذى يهز جسمه أمامًا وخلفًا أمام هذا الحائط المغتصب يشعر فى قرارة نفسه أن أصحاب هذا الحائط قادمون، لذلك لا يستطيع أن يؤدى العبادة أمامه مطمئنًا مثلما يفعل بقية البشر.

وقد كانت تقلقنى قضية علمية، وهى قضية التعميم، فمن المعروف علميًا

أنه من الخطأ أن نقول إن الشعب الفلاني يتسم بكذا وكذا لأن هذا الشعب يحوى خليطاً متبايناً من البشر لهم صفات وتوجهات غاية فى الاختلاف، لذلك ربما يكون من الخطأ أن نقول بأن اليهود يتصفون بصفات كذا وكذا، حيث أن منهم العلماء ومنهم الفنانين والمبتكرين ومنهم المعتصمين والعدوانيين.. إلخ، ولكن فى حالة إسرائيل فإن الأمر يختلف، ولذلك يجوز التعميم دون الوقوع فى خطأ منهجى علمى، حيث أن اليهود الذين حضروا إلى إسرائيل ليسوا عينة عشوائية من اليهود، وإنما جاء إليها الشخصيات التى لديها ميل لقبول الفكر الصهيونى الذى يدعو إلى التعصب والعنصرية والاستعلاء والعدوان، ولذلك فاحتمالات وجود دعاة سلام بينهم احتمالات مشكوك فيها، حيث يصعب تخيل داعية سلام (حقيقى) جاء من الشرق أو الغرب لكى يفتصب بيتاً فلسطينياً أو أرضاً فلسطينية، ويعرف حق اليقين ماذا كان مصير أصحاب البيت وأصحاب الأرض الذين حل محلهم.

وأختم هذه الشهادة بتنبيه؛ وهو أننا لا نتعرض لليهودية كأحد الديانات المقدسة، والتى يعتبر الإيمان بها جزءاً من عقيدتنا، وإنما نحن نركز على الصفات والملامح النفسية فى القومية اليهودية والتى تبلورت فى صورة الحركة الصهيونية ثم تجسدت فى الكيان الإسرائيلى، وأنه القارئ ألا يأخذ الحماس الجارف فيتبنى موقفاً عنصرياً تعصبياً فيقع فى نفس الخطأ الذى نحن بصدده علاجه فى الفكر الصهيونى فبدلاً من أن نعالج شخصاً من عنصريته نضيف إليه عنصرياً جديداً، ربما يكون أخطر من سابقه. وإنما أرجو أن تكون هذه الشهادة بمثابة محاولة جادة لإعادة النظر وإعادة التقييم وترتيب البيت الإنسانى بشكل هادئ وجاد وموضوعى، شأن كل الممارسات الطبية التى تعتمد على تحقيق الشفاء والمصلحة بأقل الخسائر الممكنة حتى وهى تبحث سرطانياً خبيثاً.

المؤلف

د. محمد المصطفى

المنصورة ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م

الفصل الأول
طبيعة النشأة وأصول التسميات

طبيعة النشأة وأصول التسميات

١- طبيعة النشأة :

كثيراً ما تعطى طبيعة النشأة وأصول التسميات فكرة مهمة عن التركيبة النفسية لأى مجتمع بشرى، فالبدايات الأولى يكون لها عمق نفسى غائر تمتد آثاره إلى كل ما يليها من فلسفات وأفكار ووجدانات وسلوكيات.

فالشعب الإسرائيلى جدم سامى الفصل عن الأمة السامية الكبرى (أبناء سام ابن نوح)، ولايزال رأى الراجح لدى المؤرخين أن الجزيرة العربية كانت هى المهد الأول لجميع الشعوب السامية، ولا يمكن تحديد الزمن الذى نزلت فيه هذه الجماعة من الجزيرة العربية إلى أرض الرافدين، ولا يكاد التاريخ يذكر شيئاً عن حياة هذه الجماعة فى تلك البقعة حتى كان العهد الكلدانى حين كانت "أور" (Ur) عاصمة كبيرة تتمتع بحضارة راقية، وتحت حكم ملوك أقوياء، وفى هذا الوقت ظهر إبراهيم عليه السلام رئيساً على جماعة هاجر بها إلى بلاد الشام، كما انتقل إلى مصر وعاد منها تجارية تدعى هاجر ولدت له إسماعيل... ومن ثم دبت الغيرة فى قلب سارة - الزوجة التى جاء بها من أور - فلم تطق هاجر معها، فذهب بها (هاجر) إلى مكة لتقيم مع ابنها بجوار البيت الحرام... ورزقت سارة من إبراهيم على الكبر ولدها إسحاق، ولد لإسحاق ولدان: عيسو ويعقوب، وعيسو هو الأكبر لكن قيادة الأسرة وكيانها الدينى أسند إلى يعقوب. وسمى يعقوب باسم إسرائيل وتزوج أختين بنتى خاله "لابان" كانت أولاهما تدعى "لينه" والثانية تدعى "راحيل". وأنجبت راحيل ولدين أكبرهما يوسف الذى كان أبوه يحبه كثيراً حتى أثار غيرة إخوته منه وكراهيتهم له فصمموا على التخلص منه، ونقلته قافلة مهاجرة إلى مصر فشب وترعرع فى مصر، وسجن، ثم كان أميناً على خزانها. ثم أحضر يوسف أباه وإخوته إلى مصر فأقاموا بها سنين طويلة يقال إنها كانت ٢٢٠ سنة، تكاثروا خلالها ونما عددهم واكتسبوا كثيراً من حضارة المصريين، ولكنهم ظلوا منفصلين ومميزين عنهم ولهم بقعة خاصة يقيمون بها. وحدثت أسباب تدعو إلى الخصومة والتباغض بين المصريين وبنى إسرائيل حتى جاء فرعون لا يعرف من كان يوسف، فاشتط فى التنكيل وأسرف فى تعذيب الإسرائيليين فكان يقتل من يولد لهم من الذكور، ويستبقى الإناث. وفى هذه الأثناء ظهر موسى عليه السلام.. وقصة نشأته فى بيت فرعون معروفة.. كذلك هجرته إلى "مديان" فى سيناء وإقامته مع شعيب عليه السلام وزواجه من ابنته، وجاء إلى مصر ليخلص قومه من بطش فرعون. أقام موسى فى

مصر يناضل حتى استطاع أخيراً أن يفلت ببنى إسرائيل إلى أرض سيناء، ومكث أبناء إسرائيل في هذه البقعة أربعين عاماً، مات خلالها هارون وموسى، فانتقلت قيادة الإسرائيليين إلى يوشع (شلبى ١٩٩٧).

وتبدأ المرحلة الثانية بخروج يوشع (يسمونه في التوراة يشوع - المؤلف) من أرض سيناء - بالشعب الإسرائيلي الذي معه - إلى أرض فلسطين، وكان هو القائد الأعلى، ونزلوا عقب خروجهم من سيناء إلى بادية شرق الأردن في الجنوب الشرقي من سوريا، وظلوا يوالون الحروب مع البلاد المجاورة للاستيلاء على أماكن خصبة، وتأسيس دولة خاصة بهم، فطالت هذه الحروب، وامتدت حتى استطاع يوشع أن يقطع مدناً من مملكة كنعان في فلسطين من أهمها أريحا، وهي مدينة مقدسة كان يهوه إله العبرانيين قد وعدهم بها، وقد أشعل يوشع فيها النار فأحرقها وأباد سكانها ومزروعاتها، وكان هذا نصراً عظيماً له، ثبت به أقدام الدولة الناشئة. وبتثبيت قدمها في هذا الطرف، أخذت تناضل لتستولى على أرض أوسع واستمرت حروبها إلى ألف عام أو ما يزيد بعد ذلك (شلبى ١٩٩٧).

يلحظ القارئ بسهولة أن النشأة ارتبطت منذ بداياتها وحتى نهايتها بالغيرة والاستعباد والعزلة والطرود والتشرد والعنف والنهب والإبادة والحرق، ولعل هذه التركيبة تعطى تفسيرات لطبيعة هذا الشعب فيما بعد.

وبعد حوالي ١٦٠ عاماً أرادوا أن ينصبوا عليهم ملكاً، فاختار لهم صموئيل (رئيسهم الديني) شاءول وكان أول ملك عليهم، وقد جاء في القرآن الكريم (سورة البقرة آية ٢٤٦ وما بعدها) إشارة إلى هذا حيث ذكر شاءول باسم طالوت. وكان شاءول ملكاً فاشلاً لم يستطع أن يحقق لهم نصراً ضد الفلسطينيين، بل واجه هزيمة شنيعة. وكان داود عليه السلام -ثاني ملك عليهم- هو الذى قتل جالوت -زعيم الفلسطينيين- ومد حدود دولة إسرائيل إلى أقصى ما وصلت إليه من السعة، وهو الذى اتخذ مدينة أورشليم (القدس) لتكون عاصمة الدولة، واستمر حكمه نحو ستين عاماً.. ثم خلف سليمان أباه داود واستمر حكمه نحو أربعين عاماً (٩٦٣-٩٢٣ ق.م) وهو الذى بنى الهيكل بناءً فخماً مكان الهيكل الذى بناه أبوه (شلبى ١٩٩٧).

٢- أصول التسميات :

بعد هذا الاستعراض الموجز -جداً- لطبيعة نشأة الشعب الإسرائيلي، نستعرض بعض التسميات المتداولة لنعرف جذورها ومدلولاتها التاريخية والنفسية :

١/٢ العبرانيون أو العبريون :

هم الذين جاءوا مع إبراهيم عليه السلام من بلاد الكلدانيين إلى أرض كنعان، سموا كذلك لأنهم عبروا نهر الفرات متجهين إلى هذه البلاد، أو لأنهم عبروا نهر الأردن في تجولهم في بلاد الكنعانيين. وتعزى هذه التسمية في النوراة إلى عابر بن سام بن نوح، الذى هم من سلالة، وهذه التسمية الأخيرة مما فنده بعض المستشرقين، وعابر هذا لم يكن أكبر أبناء سام، ولا جدًا أدنى لإبراهيم، ثم إن أبناء نوح وسلالاتهم ممن ذهب بهم الدهر ولا يطمأن إلى تاريخهم (شلبى ١٩٩٧)

٢/٢ الإسرائيليون :

هم أبناء يعقوب. وبهذا يخرج من أسرة الإسرائيليين كثير من العبرانيين مثل لوط وذريته وإسماعيل ونسله، وأيضًا عيسو بن إسحاق.. فهؤلاء عبرانيون وليسوا إسرائيليين (شلبى ١٩٩٧).

وكلمة "إسرائيل" تعنى "قوة الله"، وهى مأخوذة من لفظتين ساميتين قديمتين هما "أسر" بمعنى القوة والغلبة، ولفظة "أل" أى الله (ظاظا ١٩٩٠).

وكلمة إسرائيلى فى مفهوم دولة إسرائيل الحالية تعنى: اليهودى المقيم فى إسرائيل، واليهودى المقيم فى خارج إسرائيل أيضًا، بشرط أن يكون صهيونيًا متمسكًا بالولاء لإسرائيل (ظاظا ١٩٩٠).

٣/٢ اليهود :

نسبة إلى "يهودا" الابن الرابع ليعقوب، وكانت له الرسالة الدينية من بين إخوته، فنُسبوا إليه باعتبارهم أبناء هذه الديانة. وجاء فى بعض الكتب أنها نسبة إلى مملكة يهوذا - الإقليم الجنوبي من مملكة إسرائيل.. وهذا ليس بشيء (شلبى ١٩٩٧).

إذن فالأسماء الثلاثة السابقة (العبرانيون والإسرائيليون واليهود) ليست مترادفة، ولكن قد يستعمل أى اسم منها للجميع تجوزًا (شلبى ١٩٩٧).

٤/٢ اليهودى القاتل :

كان بنو إسرائيل دائمًا فى حالة تمرد وعصيان ضد أنبيائهم وضد الأمم الأخرى، ولذلك كتب عليهم التيه والتشرد فى مراحل كثيرة من التاريخ، ولم يقر لهم قرار فى أى أرض يقطنونها، فسرعان ما تتعارض تركيبتهم النفسية العنصرية العدوانية مع السياق البشرى العام فليفظهم المجتمع الذى يعيشون فيه فيعيشون فى التيه إلى أن يستقروا فى أرض أخرى ويعاودوا الكرة. ورغم تكرار هذا التيه

والتشرد فإنهم لم يتعلموا من خبرات الماضي وأحداث التاريخ فيعاودون نفس المسلك الانتحاري مع كل الأمم والشعوب بلا استثناء.

وإذا كان هذا الشتات في الشرق والغرب والشمال والجنوب قد اتخذ صورة الوعيد على السنة الأنبياء، فإنه في أوروبا المسيحية في العصور الوسطى قد اتخذ صورة التنديد بالجرم اليهودي، وأصبح اليهودي التائه رمزاً لهذا الشعب الصغير الممعن في القسوة والغرور (ظا ١٩٩٠).

وفي ذلك تقول أسطورة شعبية تعتبر هي المنطلق لشخصية اليهودي التائه: كان اليوم الذي أخذ فيه المسيح للصلب يوماً شديداً الحرارة في مدينة اورشليم، وكانت الجموع اليهودية قد عقدت على جبين المسيح إكليلاً من الشوك، وأرغمته على أن يحمل صليبه الثقيل على ظهره، ثم راحت تطوف به شوارع المدينة صاخبة شامته مستهزأة، تمعن في تعذيبه، وتتلذذ بإهاناته وإيذائه. واشتد بالمسيح التعب والعطش ولفحه هذا الحر الشديد، فارتقى عند باب يهودي اسمه في الأسطورة "أحشويروش"، وهو يلهث من التعب. وسمع اليهودي الضجة أمام بيته فنزل يستطلع الخبر، ورأى المسيح ملقى خائر القوى في ظل بيته، فركله بقدمه وطرده قائلاً: اذهب من هنا، وابتعد بلعنك عن بيتي. فنظر إليه المسيح، وعلامات الحزن والإرهاق بادية على وجهه، وقال له: إنك تنتهزني وتحرمني من ظل حائطك لأنك لم تجرب تعب المشي ولا عبء الإهانة والمطاردة. وسرعان ما تحدث المعجزة، فبدأ أحشويروش في المشي رغم أنفه، لا يستطيع أن يتوقف، وراح يسير حتى خرج من البلد، وأمعن في السير حتى خرج من فلسطين، ثم كتب عليه أن يسير ويسير، وأن يظل ماشياً إلى يوم القيامة، عليه معطف قديم ممزق، وعلى كتفه خُرْج فيه زاد حقير، وبيده عصاه، وفي جيبه قطعة صغيرة جداً من النقود، وقد طالت لحيته، وتراكم عليه الغبار، يُرى في حر الصيف بين الصخور وعلى الرمال، ويرى في برد الشتاء على الثلوج وفوق الجبال. هذا هو اليهودي التائه، المخلوق الأسطوري الذي انبثق من صدام عنيف بين النفسية الإسرائيلية الكثرة، الشديدة التعصب والغرور والحقد على الأمم الأخرى، وبين النفسية الأوروبية في مسيحية العصور الوسطى، التي كانت تعاني من جوار المراهبي اليهودي الأمرين، وتحاول بهذه الأسطورة أن تصب عليه لعنة المسيح (ظا ١٩٩٠).

وربما نتعجب من موقف اليهود من السيد المسيح عليه السلام، فقد كانوا ينتظرونه لكي يخلصهم من شقائهم وكان من المتوقع منهم اتباعه ومناصرته، ولكن الذي حدث أن دعوة السيد المسيح لم تلقَ لديهم قبولا، فقد جاء يدعو إلى المحبة

والتسامح والتواضع فاصطدمت هذه المبادئ الرحيمة بتوجهاتهم التي تدعو إلى الحقد والانتقام والاستعلاء على باقى الأمم، ولذلك قامت العداوة بينهم وبين المسيح عليه السلام حتى حاولوا قتله.

٥/٢ التوراة :

هو كتاب اليهود ويتألف من ٣٩ سفرًا، والمعنى الحرفى للكلمة هو "التعليم"، وينسب إلى عزرا كتابة التوراة عن طريق إعادة كتابة التراث. أما التلمود فهو كتاب اليهود الثانى. وإذا كانت التوراة قد وُضعت بعد موسى بنحو ألف عام، فالتلمود وُضع بعد التوراة بعدة قرون (الحفنى ١٩٧٣).

إذن فطبقاً لذلك نستطيع القول إن التوراة والتلمود هما تراث دينى ربما يحويان بعض التعاليم التي جاء بها موسى عليه السلام، ولكن مما لاشك فيه أن هذه التعاليم مختلطة بكم هائل مما كتبه الأحرار بأيديهم فى ظروف سياسية واجتماعية مختلفة فرضت عليهم وضع الكثير من النصوص التي تخدم أهدافاً سياسية واجتماعية معينة وتحريف أو حذف بعض النصوص التي لا تخدم هذه الأهداف.

وبعيداً عن عمليات التأصيل الدينى والتاريخى لنصوص التوراة والتي لها متخصصوها، فإننا بالنظر العلمى المتفحص لنجدها مليئة بالقصص الأسطورية التي تتناقض مع معقولية الأحداث وتتناقض مع كثير من الحقائق التاريخية الموضوعية مما يجعلها فى مقام التفكير الأسطورى. ومع هذا نجد الشعب الإسرائيلى والحكومة الإسرائيلىة ينيان على هذه النصوص التوراتية الأسطورية مجمل توجهاتهم وسياساتهم ولا يكتفون هم بتصديقها وإنما يطالبون الآخرين بالإيمان بها والعمل وفقاً لما تدعو إليه. ويحدث هذا حتى فى المفاوضات السياسية التي يفترض أنها تتعامل مع الواقع ولا تتعامل مع الأساطير. والتوراة تشكل البناء المعرفى للمجتمع الإسرائيلى ليس فقط لدى المتدينين فيه وإنما لدى العلمانيين أيضاً. والمتأمل لسلوك المجتمع الإسرائيلى يجد تطابقاً عجيباً بينه وبين النصوص التوراتية.

٦/٢ اليهودية : بين القومية والديانة :

على الرغم من أن التوراة هى الكتاب المقدس لليهود، وقد أنزلت على النبي موسى عليه السلام، وأصبحت علماً على الدين اليهودى، إلا أن اليهود كقومية قد سبقوا ميلاد موسى بقرون طويلة، ولذلك يمكن القول بأن موسى وما أرسل إليه من التوراة لم يُنشأ اليهودية وإنما منحها اليهود (الموجودين قبلاً) ديانة أكثر تنظيمًا وتحديدًا من دياناتهم السابقة.

ولذلك فالحديث عن اليهود كقومية لها مواصفاتها الخاصة يختلف عن الحديث عن اليهودية كديانة، ومن هنا نستطيع أن نفهم حديث القرآن عن اليهود (وعن بنى إسرائيل) على أنه حديث عن فئة من الناس لها مواصفات معينة في تعاملها مع الحياة، وليس حديثاً عن دين منزل من عند الله.

والصهيونية من هذا المنطلق هي بمثابة امتداد للقومية اليهودية حين اختارت التميز على باقى البشر فعزلت نفسها عن التيار الإنسانى العام، ولذلك تعرضت للاضطهاد فى مراحل تاريخية مختلفة، ولم يكن الاضطهاد قائماً على اعتبارات دينية أو عرقية، وإنما كان قائماً - فى أغلب الأحوال - على تصرفات محددة مرتبطة ببعض الصفات العنصرية التى يتمسك بها قادة الفكر والرأى فى هذا الشعب.

يقول فرويد (عالم النفس اليهودى الشهير ومؤسس التحليل النفسى): إن موسى هو محرر الشعب اليهودى، والذى أعطاه دينه وشرائعه (فرويد ١٩٥٥)، وهذا ما يؤكد سبق اليهودية كقومية على اليهودية كديانة.

بل إن فرويد يقرر فى كتابه "موسى والتوحيد" أن موسى مصرى وليس يهودياً، فهو يقول : إن موسى مصرى، ومن المحتمل أن يكون من أصل نبيل، وتجعله الأسطورة يهودياً. ثم يقول فى موضع آخر: «إن الإنسان موسى، محرر الشعب اليهودى ومانحه الشريعة الموسوية، لم يكن يهودياً بل مصرياً.. ولكن الشعب اليهودى كان فى حاجة إلى أن يجعل منه يهودياً» (فرويد ١٩٥٥).

وفى الواقع تحدث بداخلات بين القومية اليهودية والديانة اليهودية تختلف فى الدرجة من وقت لآخر، ولكن يبدو أن القومية اليهودية (والتي تتمثل حالياً فى الصهيونية) كانت دائماً أكثر بروزاً فى جميع المراحل التاريخية، بل إن القومية اليهودية قد قامت - كما تقول النصوص الدينية خاصة فى القرآن - بتحريف نصوص الديانة اليهودية وتطويعها لخدمة الأهداف القومية لليهود، خاصة أن نصوص تلك الديانة قد كتبت بعد وفاة موسى عليه السلام بمئات السنين. ويؤكد هذا قول فرويد (وهو يهودى) : «ولم تُعرف الديانة الموسوية إلا فى شكلها النهائى كما حدده لها الكهنة اليهود بعد النفى، أى بعد موسى بنحو ثمانمائة سنة» (فرويد ١٩٥٥).

وفرويد يعلم أن التوراة التى كتبها الكهنة تحوى الكثير من التحريف والتشويه والتناقضات، فنجدته يقول : «عندما أستخدام رواية التوراة بمثل هذه الطريقة الاستبدادية والتعسفية وأقيس عليها لأثبت ما أقول كلما تراءى لى ذلك، وأرفض شهادتها دون أية شبهة عندما تتعارض مع نتائجى، أعرف جيداً أنى أعرض نفسى بهذا إلى النقد العنيف فيما يتعلق بمنهجى، وأنى أضعف قوة براهينى، ولكن

هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن أعامل بها مادة قد أ تلف الوثوق بها - كما نعرف جيداً - بفعل نفوذ الاتجاهات المشبوهة» (فرويد ١٩٥٥).

وكما يحيط الغموض بكلمة يهودية، يحيط أيضاً بكلمة يهودى. فكلمة يهودى قد شاعت وذاعت فى أيام اليونان والرومان، أى من القرن الرابع قبل الميلاد، واستمرت حتى الآن. إذ كان سبط يهوذا، وهو أحد أبناء يعقوب، قد استقر فى جنوب فلسطين، وظهر منه سليمان وداود، ثم قام من بعدهما حكم ملكى فى بنى إسرائيل كله من يهوذا، يسيطر على العبريين فى هذا الإقليم، حتى سعى الإقليم نفسه يهوذا فى السجلات اليونانية والرومانية كما سعى أهله اليهود. ولاحتقتهم هذه التسمية بعد جلاتهم عن الأرض وتشتتهم فى البلاد. وفى الشتات اتخذ اسم اليهود معنىً بغيضاً بين الأمم؛ فهم أبناء هذه الطائفة المتمردة، المنطوية على نفسها، الشديدة التعصب، المتهمة بصلب المسيح، إلى جانب صفات سيئة أخرى اكتسبوها من الظروف الشاذة التى عاشوا فيها بين الأمم الأخرى على شكل أقلية محتقرة، من أبرزها: الجشع وحب المال والقسوة وعدم التدقيق فى نظافة الجسم والمسكن والثياب، حتى أصبح أمراً عادياً أن يسمع الإنسان فى بقاع متفرقة من الأرض عبارات مثل "اليهودى التائه"، "اليهودى الجشع"، "اليهودى القذر"، وهو أمر دعا كثيراً من أثرياء اليهود إلى تجنب هذه التسمية وتفضيل اسم إسرائيلى عليها (ظاظا ١٩٩٠).

وهذا الخلط بين القومية والديانة يعتبر من أهم إشكاليات المجتمع الإسرائيلى، فعلى الرغم من النهج الاستعمارى الواضح لهذا الكيان إلا أنه يلبس مسوحاً دينية بهدف إضفاء القداسة والشرعية على سلوكه، ولكن العقلاء والحكماء من يهود العالم قد فطنوا إلى هذا الخطر وأعلنوا منذ البداية مقاومتهم للمشروع الصهيونى المتستر بستر الدين لأنهم يعلمون أن فى هذا تشويه لليهودية كديانة، فليس أخطر من أن ترتكب المذابح فى صابرا وشاتيل ودير ياسين وقانا وبيت المقدس باسم اليهودية وتحت شعار نجمة داود. وعلى الرغم من أن غالبية المجتمع الإسرائيلى من العلمانيين إلا أن عقيدتهم السياسية ملغمة بالأساطير التوراتية خاصة فيما يتعلق بأرض المعاد وجبل صهيون ومملكة أورشليم وإبادة الفلسطينيين.

إذن لإسرائيل هى أخطر نموذج لاختلاط المفاهيم الدينية بالمفاهيم السياسية والقومية والاستعمارية والعنصرية، وهذا ما يجعلها تكويناً شديد الانفجار شديد الخطورة.

وقد حاول فرويد تحليل ظاهرة تمسك اليهود بالأساطير الدينية - حتى

الملحدين بينهم- فاكشف أنهم يلجأون لذلك كعامل تماسك خوفاً من التحلل والاندثار الذى يخيفهم باستمرار، وفى ذلك يقول :

«وتعلم اليهود من المصيبة السياسية التى حلت بهم أن يستسيغوا الشىء الوحيد الذى استبقوه مما كانوا يملكون، وهو سجلاتهم المكتوبة، وأن يقدروها حق قدرها. وبعد هدم تيتوس (إمبراطور روما) للمعبد فى القدس مباشرة، طلب الخاخام يوحنا بن سلكاى الإذن بفتح أول مدرسة لدراسة التوراة فى يابنيه Jabneh. ومنذ ذلك الحين كان التوراة ودراسته هما اللذان أبقيا الشعب المبعثر مع بعضه البعض» (فرويد ١٩٥٥).

ولعل هذا يفسر أيضاً حرص اليهود على إحياء اللغة العبرية الميتة وجعلها لغة رسمية والإصرار على نشرها بكل الطرق وذلك بهدف تقوية دعائم القومية اليهودية بأكبر دعامين وهما الدين واللغة.

٧/٢ الصهيونية :

هناك خلط -ربما يكون متعمداً- بين الصهيونية كحركة سياسية استعمارية براجماتية، وبين الديانة اليهودية كأحد الأديان الساوية. وهذا الخلط يتعمده البعض كى يعطوا للصهيونية قداسة دينية، ولكنه فى ذات الوقت يشوه صورة اليهودية كديانة سماوية.

فالفكر الصهيونى هو لىكر يطلب "الأرض" -أرض فلسطين- فى رمز جبل صهيون؛ أحد أهم جبال مدينة القدس وأشهرها فى التاريخ التوراتى المقدس لدى اليهود. هذا الجبل يقع فى جنوب غرب القدس القديمة، استولى عليه الملك داود -حسبما تقضى التقاليد اليهودية- من اليوسيين سكان البلاد الأصليين، والذين اتخذوه كقاعدة للدفاع عن المدينة، وجعله داود مقراً لحكمه، وسماه منذ ذلك الوقت "مدينة داود"، ومن ثم صار "صهيون" فى التقليد اليهودى من بعد داود مقراً للسلطة الدينية والسياسية والعسكرية جميعاً.. وعن "صهيون" لم يجد غلاة المتعصبين من اليهود فى العصر الحديث تسمية أكثر سحراً فى آذان فقراء اليهود من "الصهيونية"، وما تقرن به من قوة داود وشدة وشكيمة وأبهة حكم سليمان، وفخامته على عرشه الأسطورى العجيب، فاختاروها اسماً وشعاراً (ظا ١٩٨٧).

وبداية هذا الفكر قديمة جداً، وانطلقت صيحاته الأولى من مدينة "بابل" التى نفى اليهود إليها على إثر أحداث السبى البابلى، والذى تمت أكبر وأعظم حلقاته فى عام ٥٨٦ قبل الميلاد. وقد دُوّن هذا الفكر فى توراة اليهود، ونسبت

أصوله الأولى إلى متبنى مجهول يدعى "إشعيا الثانى"، وهو الذى ينظر إليه الباحثون على أنه الباعث الأول للفكر الصهيونى (فراج ١٩٩٩).

ومن أقوال إشعيا بهذا الشأن :

«من أجل صهيون لا أسكت ومن أجل أورشليم لا أهدأ حتى يخرج برّها كضياء وخلاصها كمصباح يتقد» (إشعيا ٦٢ / ١)

ومن أشهر الصهاينة الأوائل أيضاً، ذلك الكتاب الذى جسّد أحلام وآلام اليهود بعد سبيهم فى المزمور ١٣٧ والذى قال فيه :

«على أنهار بابل جلسنا، بكينا أيضاً عندما تذكرنا صهيون... وإن نسيتك يا أورشليم تنسى يمينى. ليلصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك إن لم أفضّل أورشليم على أعظم فرحى» (مزمور ١٣٧ : ١-٦).

ومن هذه البدايات الأولى، ارتبط فكر اليهود بالقلم، وبحيث أصبحت كلمات أمثال هؤلاء الكتاب الصهاينة، مع مرور الزمن مكوناً أساسياً فى صميم العقيدة اليهودية (جارودى ١٩٩٠).

وقد بدأت الحركة الصهيونية فى الظهور بقوة مع أواخر القرن التاسع عشر، ويُعد اليهودى النمساوى "تيودور هرتزل" (١٨٦٠ - ١٩٠٤) المؤسس الأشهر لهذه الحركة. وتيودور هرتزل وُلد فى فيينا وعمل بالصحافة، واتصل بالمسألة اليهودية عن طريق جمعيات ومنظمات فكرية، كانت تعمل من منظور إنسانى فى الظاهر لتسهيل هجرة أعداد من يهود شرق أوروبا إلى فلسطين (هيكل ١٩٩٦).

وقد اختلف الباحثون والمفكرون فى تحديد طبيعة الحركة الصهيونية، فريق ذهب إلى أنها حركة دينية لا سياسية، ووصفها فريق ثان بأنها حركة سياسية لا دينية، وفريق ثالث قال إنها حركة دينية نشأت فى شكل الفكر الصهيونى منذ زمن النفى الأول فى بابل، ثم تحولت إلى حركة سياسية على يد "تيودور هرتزل".. وأضاف آخرون إلى ما سبق أنها حركة استعمارية (فراج ١٩٩٩).

وبعد بلورة الحركة الصهيونية فى شكل الكيان الإسرائيلى الحالى، وبعد رصد سلوك هذا الكيان على مدى الخمسين سنة السابقة نستطيع القول باطمئنان أن الصهيونية هى حركة سياسية عنصرية أخذت الدين ستاراً لتحرير أهدافها الاستعمارية.

ولقد درس روجيه جارودى الفيلسوف الفرنسى الشهير الحركة الصهيونية بعمق، وطرح نتائج دراساته فى كتابين هامين هما "إسرائيل بين اليهودية والصهيونية" (مترجم ١٩٩٠)، و"الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية" (مترجم

١٩٩٦)، وقد خلص جارودى إلى أن: الحركة الصهيونية التى تزعمها "هرتزل" وأعوانه، والتى أوجدت دولة إسرائيل، إنما هى حركة سياسية لا علاقة لها -البتة- بالدين اليهودى. ولإثبات وجهة نظره هذه انتهج جارودى خطة بحث من شقين (فراج ١٩٩٩) :

الأول : إثبات أن الحركة الصهيونية حركة استعمارية لا علاقة لها بالدين اليهودى.
الثانى : محاولة تبرئة الديانة اليهودية من بشاعة مسلك إسرائيل التى صنعتها الصهيونية.

وقد جاءت أدلة الأستاذ جارودى فى إثبات الشق الأول كالتالى (جارودى

: ١٩٩٦)

- ١- قول هرتزل فى يومياته : إننى لا أنقاد لأى دافع دينى.
- ٢- قول هرتزل فى كتابه "الدولة الصهيونية" : إن المسألة اليهودية ليست بالنسبة لى مسألة اجتماعية ولا مسألة دينية.. إنها مسألة قومية.
- ٣- التوجه الأول لـ "هرتزل" الذى لم يظهر اهتمامًا خاصًا بـ "الأرض المقدسة" فلسطين، بل كان على استعداد لأن يقبل أيضًا، ومن أجل أهدافه القومية، بأوغندا أو طرابلس أو قبرص أو الأرجنتين أو موزمبيق أو الكونغو.
- ٤- توجه "هرتزل" إلى الاستعمارى الشهير "سيسل رودس" لطلب معاونته ومشورته.. حيث تسجل الوثائق بتاريخ ١١ يناير ١٩٠٢ نص هذه الرسالة من "هرتزل" إلى "سيسل" : «أرجوك أن ترسل لى نصًا يقول إنك قد فحست برنامجى وأنت موافق عليه. وقد تتساءل لماذا أكتب إليك يا سيد رودس!!! ... ذلك أن برنامجى هو برنامج استعمارى».

٥- معارضة أشهر المراكز الحاخامية العالمية للحركة فور إعلان تأسيسها، ومطالبة كبار رجال الدين اليهود بمقاطعة هذه الحركة وعدم التعامل معها... وهنا يسجل "جارودى" نص هذا القرار التالى الصادر عن مؤتمر كبار الحاخامين الذى عقد فى مونتريال عام ١٨٩٧ -وفى نفس توقيت انعقاد مؤتمر العمل الصهيونى الأول فى "بازل" بسويسرا- يقول القرار (جارودى ١٩٩٦) :

«إننا نشجب تمامًا أى مبادرة تهدف إلى إنشاء دولة يهودية، وإن أى محاولات من هذا القبيل تكشف عن مفهوم خاطئ لدولة إسرائيل.. التى كان الأنبياء اليهود هم أول من نادى بها.. ونؤكد أن هدف اليهودية، ليس بهدف سياسى ولا قومى، ولكن روحى.. فهو يشير إلى عصر مسيحى حيث يعترف كل الناس بأنهم ينتمون إلى طائفة واحدة كبرى لإنشاء مملكة الرب على الأرض».

ويضيف جارودي بأن هذا كان رد الفعل الأول للمنظمات اليهودية الأخرى ابتداءً من "رابطة حاخامات ألمانيا"، وحتى "الاتحاد الإسرائيلي العالمي بفرنسا"، و"الاتحاد الإسرائيلي في النمسا"، وكذلك الرابطات اليهودية في لندن" (فراج ١٩٩٩).

وعلى الرغم من الطبيعة السياسية الاستعمارية للحركة الصهيونية إلا أنها، وبشكل براجماتي، وجدت في بعض النصوص التوراتية (التي كتبها الأحرار في عصور السبي والتوتر) غطاءً دينياً لها يضمن تعاطف المتدينين والمتطرفين اليهود في أنحاء العالم، وضربت بعرض الحائط تحذيرات مؤتمر كبار الحاخاميين اليهود والذين كانوا ينظرون بعمق إلى مصير تلك الحركة العنصرية وخطورتها على اليهود وتشويهها لصورة الديانة اليهودية كديانة سماوية لها وظيفة روحية في الأساس.

وتعامل القادة الصهاينة مع النصوص التوراتية بشكل انتقائي مفرض فاختاروا منها قصص مجازر يشوع (سيأتي الحديث عنها تفصيلاً فيما بعد) ضد الكنعانيين ليبرروا سياسات الإبادة ضد العرب في فلسطين ولبنان ومصر والأردن، على الرغم من أن هذه النصوص التوراتية قد كتبها الأحرار كما ذكرنا في زمن النفي والسبي والتوتر، وذلك لخدمة الأهداف السياسية لليهود، وقد وقعت أحداثها بعد موت موسى عليه السلام بمئات السنين لذلك فهي نصوص بشرية وضعها الأحرار، والمتأمل لمحتواها يلمح بسهولة طبيعتها البشرية الأسطورية والعدوانية، وهم مع ذلك يصرون على أن يلبسوها ثوب القداسة الدينية والدين منها براء.

الفصل الثاني

سمات ومحددات الشخصية

الصهيونية والعوامل المؤثرة فيها

سمات ومحددات الشخصية الصهيونية

والعوامل المؤثرة فيها

على الرغم من التكوين غير المتجانس للشعب الإسرائيلي إلا أن هناك سمات مشتركة تجمع هؤلاء الذين يعيشون داخل إطار إسرائيل أو حتى اليهود والمقيمين في الخارج والمؤمنين والمتحمسين لفكرة إقامة دولة إسرائيل.

«فعلى الرغم من أن الناس في إسرائيل مختلفون جدًا.. كالفرق بين اليمنى الذى قتل رابين والأسترالى الذى أحرق المسجد الأقصى، اختلاف نتيهاو وجينولا كوهين.. ولكن يهود العالم مثل فرقة موسيقية تعزف على آلات مختلفة لحناً واحداً، فلما اجتمعوا في مكان واحد أمام مايسترو واحد، كانت لهم سيمفونية واحدة : أرض المعاد أو الميعاد» (أنيس منصور ١٩٩٩).

ويبدو أن لفظة يهودى قد أخذت في أذهان أمم العالم معنى كريهاً منذ وقت مبكر، فقد جاء في التلمود عند الحديث عن قصة أستير وعيد البوريم «أن كل كافر في تلك الأزمان كان يدعى يهودياً» (المجلد ١٣ : ٧١) ... وهكذا نرى أن كلمة يهودى قد بدأت حياتها في النفسية الإسرائيلية مصطلحاً عنصرياً يجمع بين العصبية العرقية والغرور السياسى، فكان رد الفعل من الأمم الأخرى أنها استعملته وصمة عار وسبة وسخرية في وجه العبريين، وراح اليهودى في كثير من بقاع الأرض يتهرب من هذه الصفة ويفضل عليها اسم الإسرائيلى.. ومع ذلك فإن وجود هذه المصطلحات المتقاربة قد أوقع هؤلاء الناس في حيرة كبيرة، فالإسرائيلى اسم له صفة العنصرية، واليهودى اسم أصبح ينم في النهاية عن العصبية الدينية، كما أن صفة العبرى أصبحت تقرن بذكرىات عن عشائر قديمة جدًا مندثرة، ولكن النفسية الإسرائيلية انتهت إلى تقسيم الموضوع تقسيمًا تحكيمياً اصطلاحياً: فجعلت للجنسية مصطلح الإسرائيلى، وللدين مصطلح اليهودى، وللثقافة مصطلح العبرى (ظاظا ١٩٩٠).

ومن سمات هذه الشخصية الشعور بالانفصال عن البشر والتميز على الأمم الأخرى عن طريق الأنساب والأعراق، وعن طريق الأساطير الدينية والسياسية والتاريخية التى تراكمت مع الزمن وتحولت إلى معتقدات راسخة في رؤوس اليهود يتصرفون على أساسها وبوحى منها.

ومن سمات هذه الشخصية : الصراع.. فاليهود لم يستطيعوا أن يتعايشوا مع غيرهم على مدى التاريخ، فسرعان ما كان ينشب الصراع، ولم يحدث هذا مع البشر

فقط وإنما بدأ الصراع أول ما بدأ مع الله؛ حيث تدور التوراة قصة صراع يعقوب مع رجل الليل (الإله) حتى أتعبه، ووصف يعقوب لابنه يهوذا -جد اليهود- بأنه شبل أسد، وأن يده على نواصي أعدائه (وأعداؤه هم كل الأمم من غير اليهود)، وهو يقول له صراحة: «من صراع نشأت يا بنى» (التكوين ٤٩ : ٩). والصراع لديهم يصل إلى أقصى درجات الدموية، فقد ورد في كتابهم المقدس أن يوشع بن نون أراد -بعد موت موسى- أن يدخل بقومه إلى فلسطين، فعسكر حول مدينة أريحا وأمر بالنفخ في الأبواق، «فلما سمع الشعب صوت البوق، هتف الشعب هتافاً عظيماً، فسقط السور في مكانه، وصعد الشعب إلى المدينة كل امرئ لوجهته، وأخذوا المدينة، وأبادوا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، بحد السيف» (يشوع ٦ : ٢٠، ٢١).

وقصة شمشون وصراعه مع أعدائه ومبالغته في التنكيل بهم «التقى بأسد قوى فتى، وإذا به يصارعه بدون سلاح، حتى إذا تمكن منه فسخره نصفين وألقى برمته على الأرض» (قضاة : ١٤).

وكارل ماركس الذى نشأ فى بيئة يهودية متعصبة، بنى فلسفته الماركسية على فكرة الصراع بين الطبقات، وذاعت الفكرة بسبب بريقها الخادع، وأدت إلى إبادة أعداد هائلة من البشر، ثم فشلت النظرية وانهار الاتحاد السوفيتى ومعه الكتلة الشيوعية انهياراً مدوياً.

وفى التراث الأدبى والتاريخى اشتهر اليهودى بأنه مُرابٍ وأنه بخيل (تاجر البندقية) ومازالت هذه الصورة قائمة حتى الآن؛ فاليهود فى كل المجتمعات يعمدون إلى ناصية المال فيمتلكونها ثم يتحكمون فى مصادر الاقتصاد والثروة، ويقرضون المحتاجين بالفوائد، ويسيطرون على البنوك الربوية والبورصات وأسواق المال، وقد أكسبهم هذا الموقف كراهية وبغض المجتمعات التى عاشوا فيها ومارسوا إذلال أصحابها من هذه الناحية. ويتصل بذلك محاولتهم شراء الدماء بالمال والمتاجرة فى الأعراض وفى كل شئ، والاحتياى لكسب المال لتحصيل مزيد من السيطرة على السياسة والاقتصاد والإعلام.

«ولم يكن اليهود يرحمون المسيحى إذا تعامل معهم أيضاً، وكان سلاحهم هو إقراضه المال بالربا الفاحش، حتى إن البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦م أصدر أمراً بأن يكون القرض الذى يأخذه المقاتل الصليبي من اليهود بدون فوائد، واليهودى المخالف يعاقب بالحرمان المطلق من التعامل مع المسيحيين، واتخذ هذا الأمر البابوى صفة القانون فى مجمع لاتران المقدس الرابع سنة ١٢١٥م. وتفنن اليهود

مع ذلك فى التلاعب بأرزاق المسيحيين وأموالهم، وكان لابد من التفكير فى طريقة يُعرف بها اليهودى من غيره فى المدن والأسواق، وظهرت فى السنوات الأولى من القرن الثالث عشر أوامر رسمية تفرض علامات مميزة على ملابس اليهود، وكان أشهر هذه العلامات "العجلة"، وهى حلقة يثبتها اليهودى على صدره، وقد سهّلت هذه العلامة تعرض اليهود للإهانة والعنف فى الطريق، حتى استنجدوا بالبابا غريغوريوس التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١ م) الذى أمر بالتسامح معهم، وتجديد القوانين الرحيمة بهم التى صدرت فى عهد البابا أونوريوس الثالث والبابا إسكندر الثالث» (ظا ١٩٩٠).

ومن السمات المميزة للشخصية اليهودية: العنصرية والتعصب والاستعلاء والعزلة والشعور بالاضطهاد.. وسوف نفرد هذه الصفات مواضع أخرى من الكتاب نظرًا لأهميتها.

واليهود اشتهروا فى التاريخ بأنهم قتل الأنبياء؛ فعلى يديهم قُتل النبى يحيى عليه السلام وقُتل عيسى عليه السلام، وغيرهم كثير.

وهم قوم مشهورون بالجدال والمناورة، وقد ورد فى القرآن الكريم تصوير هذه الصفات فى سورة البقرة حيث أمرهم الله أن يذبحوا بقرة فدخلوا فى جدال طويل مع نبي الله موسى حول شكلها ولونها وصفاتها.

ونقض العهد صفة أصيلة فى اليهود على مر تاريخهم، وتؤكد هذه الأحداث اليومية حتى يومنا هذا، والآيات القرآنية الدالة على ذلك كثيرة يمكن الرجوع إليها بسهولة.

وبسبب هذه السمات وغيرها، صار اليهود مشكلة على مر التاريخ، والنصوص الدينية فى التوراة والإنجيل والقرآن تصور اضطراب علاقة اليهود بربهم وأنبيائهم والناس جميعًا فى مختلف العصور وتحت مختلف الظروف.

وقد رفعت إلى نابليون شكاوى كثيرة فى حق اليهود، وكان هذا سببًا فى انشغاله بالتفكير فى المشكلة اليهودية. فقد تقدم بالشكوى إليه وفد من المواطنين بالألزاس عند مروره بمدينة استراسبورج عائدًا من حربه فى أوسترليتز، يومى ٢٢، ٢٣ يناير ١٨٠٦ م، وكان على رأسهم محافظ الإقليم "كيلرمان" وجميع وجهاء المحافظة، وقد ورد فى شكواهم من اليهود: «أنهم يغزون كل ميادين الوساطة التجارية والتجارة، ويخربون بيوت الفلاحين بالربا ونزع الأملاك ويخشى عما قريب أن يكونوا وحدهم المالكين للألزاس. وعلى أثر ذلك كتب نابليون إلى وزيره للشئون الدينية بورتاليس أمرًا بالدعوة إلى مؤتمر يهودى للبحث فى هذه المشاكل

وأمثالها، جاء فيه: وأشير من جديد إلى أنه لا أحد يشكو من البروتستانت ولا من الكاثوليك كالشكوى من اليهود، مما يبين أن الأذى الذى يرتكبه اليهود لا يأتى منهم كأفراد بل من وضع هذه الأمة نفسه، فهم حشرات وجراد يدمرون فرنسا» (Gyges, 1956).

ومع مرور الزمن وتفاعل هذه السمات مع الأحداث، أصبح للشخصية الصهيونية محددات وأنماط واضحة نستعرضها فيما يلى :

١- سمات الإله .. وسمات اليهود

إن لسمات الإله فى تصور أى شعب أثر كبير على سمات ذلك الشعب، فإذا كان هذا الإله فى تصورهم برًا رحيماً عطوفاً... إلخ، انعكست هذه الصفات فى سلوك الشعب المؤمن به، وإذا كانت صفات الإله تتميز بالقوة والجبروت والقهر انعكست أيضاً هذه الصفات فى سلوك الشعب وأصبحت مثلاً علياً يسعى إليها الناس؛ أما إذا كانت صفات الإله هى مزيج من هذا وذاك فإننا أمام احتمالين: الأول: أن تكون هذه الصفات تكاملية بحيث تجمع بين الجمال والجلال، وبالتالى تنعكس هذه الصفات التكاملية على المؤمنين بهذا الإله. الثانى: أن تكون هذه الصفات متناقضة، فيظهر هذا التناقض واضحاً فى سلوك الناس.

وفى العقيدة اليهودية نجد أن سمات الإله جاءت من مصدرين: المصدر الأول هو "آتون" ذلك الإله الذى دعا إخناتون إلى توحيده وعبادته، وقد خرج موسى عليه السلام ومن معه من مصر وهم يحملون عقيدة الإله "آتون"، وتقابلوا على حدود فلسطين مع مجموعة من القبائل يعتقدون ديانة جديدة هى عبادة إله البراكين "يهوه"، وتعاون الفريقان لفتح أرض كنعان، وبذلك كانت هذه القبائل العربية هى المصدر الثانى لتصور الإله عند اليهود. ولنرى كيف حدث ذلك من خلال كتابات فرويد عالم النفس الشهير، وهو يهودى متعمق فى دراسة أحوال اليهود التاريخية والنفسية. يقول فرويد:

«لقد توصل إدوارد مير إلى استنتاج مؤداه أن اليهود عند رجوعهم من مصر اتحدوا بقبائل كانت لهم بها تقريباً صلات نسب فى المنطقة الواقعة على حدود فلسطين وشبه جزيرة سيناء وشبه الجزيرة العربية. وأنهم هناك فى بقعة خصبة اسمها قادش، وتحت تأثير قبائل مديان العربية، اعتنقوا ديانة جديدة هى عبادة إله البراكين يهوه، وبعد ذلك مباشرة كانوا مستعدين أن يفتحوا أرض كنعان» (فرويد ١٩٥٥).

«ومن المؤكد أن يهوه كان إلهاً بركانياً... وبرغم كل التغيرات التى طرأت على نص التوراة نستطيع أن نعيد -تبعاً لمير- بناء الشخصية الأصلية للإله: إنه مارد مهلك متعطش للدماء يسير بالليل ويتجنب ضوء النهار» (فرويد ١٩٥٥).

«وربما لم يكن الإله يهوه الذى قاد إليه موسى المديانى شعباً جديداً، ربما لم يكن كائناً عظيماً بأى حال من الأحوال، فلقد كان إلهاً فظاً، ضيق العقل، محلياً، غنيماً ومتعطشاً للدماء، وكان قد وعد أتباعه أن يعطيهم "أرضاً تفيض لبناً وعسلاً"، وشجعهم على أن يخلصوا البلد من سكانه الحاليين بحد السيف» (فرويد ١٩٥٥).

هذه كانت صورة الإله عند اليهود خاصة أولئك المقيمين في كنعان، وعندما قاد موسى اليهود المصريين في عملية الخروج ووصلوا إلى كنعان حدثت هناك ازدواجية لصورة الإله فكما يقول فرويد: «ولجزء واحد من الشعب أعطى موسى المصرى تصورًا آخر أكثر روحية للإله، إله يحتوى كل العالم، إله هو كل الحب، كما هو كل القوة، يبغض كل الطقوس والسحر، ويضع حياة ملؤها الحق والعدل كهدف أسمى للإنسانية» (فرويد ١٩٥٥).

ولكن يبدو أن هذه الازدواجية في تصور صفات الإله كانت تتأرجح في العصور المختلفة، ولكن صورة الإله يهوه (الإله البركاني الغاضب الباطش الذى وعدهم الأرض وشجعهم على التخلص من سكانها بحد السيف) كانت أكثر حضورًا في وجدان الشعب اليهودى، وهذا لا يمنع تمثل بعض فئاتهم للإله الخب القوى الذى بشر به موسى.

ويعصور فرويد هذا الصراع بين صورتى الإله فيقول: «إن الشعب -ربما بعد زمن قصير جدًا- لبذ تعاليم موسى، وحاز الإله يهوه شرفًا لم يكن يستحقه، ابتداءً من قادش فما بعدها، عندما أضيف التحرير الذى قام به موسى لشعبه إلى حساب يهوه نفسه (الإله البركاني)، ولكن كان عليه أن يدفع ثمنًا غاليًا لهذا الاغتصاب، فظل الإله الذى احتل مكانه صار أقوى منه، وفي نهاية التطور التاريخى ارتفع أعلى من كيانه كيان إله موسى المنسى. وليس بوسع أحد أن يشك أن فكرة هذا الإله الآخر وحدها هى التى مكنت ب إسرائيل من أن يتغلب على كل مصاعبه وأن يعيش حتى وقتنا» (فرويد ١٩٥٥).

وقد أدى هذا التصور المزدوج للإله، بالإضافة إلى الطبيعة الجغرافية والتاريخية لشقى الشعب اليهودى (اليهود المهاجرين من مصر مع موسى، واليهود المقيمين في فلسطين) إلى ثنائية في التكوين اليهودى يعبر عنها فرويد بقوله: «وبهذا أصل إلى نهاية، فقد كان غرضى الوحيد أن أطابق صورة موسى المصرى داخل إطار التاريخ اليهودى، وربما أستطيع الآن أن أعبر عن خاقتى بأقصر صيغة: إلى الثنائية المعروفة لذلك التاريخ -شعبان يندمجان مع بعضهما ليكونا أمة واحدة، مملكتان اثنتان تنقسم إليهما هذه الأمة، اسمان اثنان للمعبود فى مصدر التوراة- نضيف اثنين جديدين: تأسيس ديالتين اثنتين جديديتين، الأولى تنحيها الثانية ومع ذلك تعاود الظهور منتصرة، مؤسسين دينين اثنين، يسميان بنفس الاسم، اسم موسى، وعلينا أن نفصل بين شخصيتهما، وكل هذه الثنائيات نتائج ضرورية للنتيجة الأولى: أن قسمًا من الشعب مرَّ بما يمكن أن يسمى تسمية صحيحة: تجربة أذوية Traumatic Experience أعفى الآخر منها» (فرويد ١٩٧٥).

ورعنا يفسر هذا وجود الصقور والحمائم فى المجتمع الإسرائيلى الحالى، ويفسر أيضًا وجود قادة الحركة الصهيونية العالمية بتخطيطهم الشيطانى الضار بالإنسانية كلها، ووجود علماء ومفكرين يهود أثروا التاريخ البشرى باكتشافات واجتهادات علمية كبيرة وبعضهم يرفض فكرة الصهيونية.

«ولو عدنا للعصور الأولى نستطيع أن نقول بجزم أن يهوه لم يكن أبدًا يشبه إله موسى، فقد كان أتون مسالمًا مثل رسوله الذى بشر به على الأرض -ومثل نموذج الأرضى بمعنى أصح- الفرعون أخناتون» (فرويد ١٩٥٥).

وعن تطور سمات الإله بفعل الأحداث وأثر ذلك على سمات الشعب اليهودى يقول فرويد: «ولقد سبق أن ذكرت -وفى ذلك تؤيدنى آراء آخرين- أن الحقيقة المركزية لتطور الديانة اليهودية كانت: أن يهوه فقد سماته الشخصية على مر الزمن وصار أكثر فأكثر مثل أتون إله موسى القديم، وبقيت الاختلافات، هذا حقيقى، وهى اختلافات تبدو هامة للوهلة الأولى، ومع ذلك ففسيرها سهل. لقد بدأ أتون حكمه فى مصر فى فترة آمنة سعيدة. وحتى والإمبراطورية قد بدأت تهتز من أساسها، استطاع أتباعه أن يتحولوا عن المسائل الدنيوية وأن يواصلوا امتداح ما خلقه والاستمتاع به. أما الشعب اليهودى فقد قبض له القدر سلسلة من الامتحانات القاسية والتجارب المؤلمة، ومن ثم صار إلهًا صلبًا قاسيًا متدنرًا بالكآبة كما كان فى الواقع، واستبقى صفة الإله العالى الذى يحكم كل الأراضى والشعوب» (فرويد ١٩٥٥).

لما سبق نلمح صورة الصراع بين إلهين من أجل الوجود، ولكن فى أغلب الأحيان يستطيع الإله البركانى الغاضب "يهوه" اغتصاب مكانة الإله الطيب أتون، ومن هنا نجد أن الصراع كامن فى رأس العقيدة اليهودية وهى الإله، وهو ليس صراعًا يودى إلى تصالح وتكامل وإنما صراع يودى إلى إلغاء أحد الآلهة للآخر، أو على الأقل يحاول ذلك.

ولم تقتصر هذه الازدواجية على صورة الإله وإنما امتدت لتطال صورة موسى فى الديانة اليهودية، فعلى الرغم من كونه نبيًا جاء يدعو للخير، فإن التصورات اليهودية قد أضفت عليه صفات مناقضة لذلك تمامًا. يقول فرويد: «ولسنا نرفض بالمثل أن كثيرًا من سمات اليهود التى أدمجت فى تصورهم المبكر للإله، عندما جعلوه غيورًا ومتجهماً ولا يسهل إرضاءه، قد استمدوها أصلاً من ذكراهم المرسى، لأنه فى الحقيقة لم يكن هو الإله غير المرئى الذى قادهم خارج مصر، بل كان الإنسان موسى.. وتضفى قصة التوراة نفسها سمات معينة على موسى، وهى تصفه

كانسان غضوب حاد الطبع - مثلما فى حماته يقتل ملاحظ العمال الفسط الذى أساء
معاملة عامل يهودى، أو مثلما فى استيائه من مروق شعبه يحطم الألواح التى أعطاه
له الله فوق جبل سيناء» (فرويد ١٩٥٥).

٢ - اليهود والأسطورة

تلعب الأسطورة دوراً فعالاً في حياة اليهود إلى درجة أنها قد تصبح - بل أصبحت فعلاً - هي النواة النشطة التي يتشكل حولها النسيج الاجتماعي والثقافي والسياسي والديني للمجتمع اليهودي. وهم لا يقنعون بأن تكون الأسطورة محور حياتهم هم فقط، بل إنهم يسعون لإقناع الآخرين بها ليجعلوهم يتصرفون وفق معطياتهم (كما حدث مع كثير من ذوى التأثير العالمي حين راحوا يرددون أساطير اليهود حتى في أحاديثهم الرسمية).

وربما نتعجب ونتساءل: كيف يمكن أن يكون للأسطورة كل هذه القوة؟... وكيف لها أن تعيش وتظل نشطة ومؤثرة في مجريات الأحداث بهذا الشكل؟... وكيف يصدقها الناس ويعملون بوحى منها في عصر العلم والتكنولوجيا؟ والجواب ربما يحتاج لدراسات أكثر عمقاً وتحليلاً، ولكن يمكن القول بأن الأسطورة حين تتصل بالسّمات الشخصية لشعب من الشعوب فإنها تظل نشطة طالما بقي هذا الشعب على قيد الحياة، لأنها - أى الأسطورة - تلبى حاجة مهمة لهذا الشعب وتلعب دوراً كبيراً في توازن شخصية الأفراد والمجتمع الذى نشأت فيه.

وإذا عدنا إلى بداية البداية نجد أن البناء اليهودي بأكمله قد قام على أسطورة بالغة الدلالة على الشخصية اليهودية وسماتها. فقد ورد في التوراة قصة موجزها أن سيدنا يعقوب لقي رجلاً في الليل عند جدول ماء فظل يصارعه حتى الفجر حتى تعب الرجل فقال له: أطلقنى فقد طلع الفجر. فقال: لا أطلقك إلا إذا باركتنى. فقال له: ما اسمك؟ قال: يعقوب. فقال: لن يدعى اسمك يعقوب من بعد، بل "إسرائيل" لأنك صارعت الله والناس، وغلبت (التكوين ٢٢: ٢٤ وما بعدها). وكلمة إسرائيل تعنى "قوة الله"، وهى مشتقة من لفظتين ساميتين هما "أسر" بمعنى القوة، ولفظة "أل" أى "الله". وإذا قفزنا من البداية إلى النهاية نجد أن "شمشون الجبار" هو أحد أبطالهم الأسطوريين في العصر الحديث، وقد نسجوا حوله القصص والملاحم وتغنى بها الناس إعجاباً وجهلاً، وبين الأسطورة الأولى والأسطورة المعاصرة هناك سجل حافل بالأساطير تشكل البناء الاعتقادي والسلوك اليومي لليهود.

ولنحاول الاقتراب أكثر لنرى كيف تمنح الأسطورة اليهود تعويضاً لمواطن الضعف الفاترة في شخصياتهم، فمثلاً نرى أن اليهود يشعرون بقلتهم وضعفهم فتأتى السطورة لتمنحهم قوة فوق كل البشر بل وفوق الإله كما تزعم الأسطورة سالفة الذكر. ول نجد أن اليهود في شخصيتهم الشعور بالاضطهاد، لذلك فالأسطورة تمنحهم فكرة التفوق والاستعلاء. ولديهم شعور بالنبد، لذلك فالأسطورة تمنحهم

فكرة اختراق النظم ومواقع التأثير. ولديهم شعور بالتهميش والتشتيت، لذلك فالأسطورة تدفعهم للتجمع في فلسطين حيث ملتقى القارات والحضارات، وحيث عمق التاريخ ودفء الوجود الإنساني وعمق تاريخ النبوءات. ولديهم شعور بالخوف لا يفارقهم، لذلك فالأسطورة تلح عليهم في تحقيق الأمن ولو على حساب الآخرين. ومن هنا تنشأ صفات مثل "شعب الله المختار" أو "الشعب الأبدى" لتحل محل "اليهودى التائه".

وقد لازمت هذه الأساطير اليهود لأنها تحقق لهم توازنًا نفسيًا ربما لا يستطيعون الحياة بدونه، وإن كان هذا التوازن على المستوى المرضى. ولذلك حاولوا جاهدين أن يثثروا مفردات أساطيرهم في العهد القديم وفي العهد الجديد وفي الكتب السماوية الأخرى أو تفسيراها لكي يضمنوا بقاء هذه الأساطير واقتناع الناس بها على أنها كلام الله. وعندما عجزوا عن بث هذه الأساطير في صلب القرآن وضعوها في بعض التفاسير، وقد اتبته إليها المحققون وأطلقوا عليها اسم "الإسرائيليات".

وقاموا ببث هذه الأساطير في كتب التاريخ والاجتماع والسياسة، بل وقاموا بكتابتها على أرض الواقع في فلسطين، ولا يخجل علماءهم وساستهم أن يضمنوا خطاباتهم وكتاباتهم تلك الأساطير على الرغم من أن الجو العام في الحضارة المعاصرة قد تجاوز مرحلة تصديق الأساطير، بل وتصديق الأديان في مجملها أحيانًا، ولكن مع هذا فاليهود لا يعملون من المحاولة.

وعلى الرغم من أن الأسطورة تتيح بعض التماسك للمجتمع اليهودى، وتتيح فرصة تخويف الآخرين من قوة اليهود ومن سطوة اليهود وتحكم اليهود، وخطط اليهود وأسلحة اليهود، إلا أن البناء القائم على الأسطورة يظل هشًا وقابلًا للانهار في أى لحظة. والقارئ المتمعن للأحداث يرى أن المجتمع اليهودى قد واجه خطر الانهيار التام في مواقف كثيرة على الرغم من ادعاءات القوة والهيمنة والسطوة. ففي حرب العاشر من رمضان تضعضع النظام اليهودى، وصرخت رئيسة الوزراء جولدا مائير في هلع، ولولا الثور الأمريكى الذى دخل المعركة برأسه لانهارت تلك الدولة الطفيلية الهشة. وفي الآونة الأخيرة حين قُتل ستين يهوديًا في عمليات التفجير في القدس وغيرها، كادت أن تعصف بالدولة الإسرائيلية لولا الطمأنة والدعم العالمى لهذا الكيان الهش المدلل كى يبقى على قيد الحياة.

٣ - التشويه الإدراكي

لما كانت الصهيونية قائمة على أساطير توراتية وغير توراتية، فإن ذلك جعل إدراك الإسرائيليين ذاتياً ومشوّهًا. فهو ضيق من حيث إنه لا يدرك الواقع وتفاعلاته ولا يدرك الآخر ومعتقداته واحتياجاته ومنطلقاته، وهو ذاتي لأنه شديد الخصوصية ووقف على غلاة اليهود وأصحاب الهوس الديني فيهم، ولا يشاركهم فيه إلا قلة من أصحاب المصالح والأهواء من اليهود، وهناك كثير من عقلاء اليهود حذروا من هذا المنزلق الصهيوني الانتحاري، فها هو ذا العالم اليهودي الشهير "ألبرت أينشتاين" قد عبر عن رأيه في شأن إقامة دولة إسرائيلية، وذلك في عام ١٩٣٨، حيث قال: «في رأيي فإنه من المعقول أكثر التوصل إلى اتفاق مع العرب على أساس حياة مشتركة ومسألة، بدلاً من إنشاء دولة يهودية. وإن إحساسى الداتي بالطبيعة الجهورية لليهودية يصطدم بفكرة دولة يهودية لها حدودها وجيشها ومشروعها للسلطة الدنيوية مهما كانت متواضعة. وأخش من الخسائر الداخلية التي قد تكبدها اليهودية بسبب قومية ضيقة في صفوفنا» (جارودي ١٩٩٦).

وهذا مفكر يهودي آخر هو "مارتن بوبر" يعبر في إحساس ما بين اليأس والفرح مما آل إليه حال المشروع الصهيوني في أرض فلسطين وبعد قيام دولة إسرائيل بسنوات عدة، يقول بوبر: «إن الشعور الذي اعتزاني منذ ستين عامًا عندما انضمت للحركة الصهيونية هو في جوهره نفس الشعور الذي يعتزني اليوم.. لقد كان أملى ألا تتبع هذه القومية طريق الآخرين وأن تبدأ بآمال عريضة لكي لا تتردى بعد ذلك حتى تصبح نزعة أنانية مقدسة... عندما عدنا إلى فلسطين (١١) كان السؤال الحاسم هو: أتود أن تحضر هنا كصديق وكأخ، وكعضو في مجتمع شعوب الشرق الأوسط أو كممثل للاستعمار والإمبريالية؟» (جارودي ١٩٩٦).

والإدراك الصهيوني مشوّه نظراً لقيامه على أساطير أصابها التبديل والتحريف طبقاً لنوازع وأهواء قديمة ليس لها بالواقع صلة أو ارتباط، وهذه الأساطير ملينة بالتحريض العدواني على الآخر (غير اليهودي).

ومما عمق من العنف الإدراكي لدى الصهاينة، هو تفسيرهم للعقيدة اليهودية، فقد حولوا العهد القديم إلى "فلكلور" الشعب اليهودي، وهو كتاب تفيض صفحاته بوصف حروب كثيرة خاضها العبرانيون ضد الكنعانيين وغيرهم من الشعوب التي أبادوا بعضها، وهو يفصل فصلاً حاداً بين الشعب اليهودي المقدس والأغيار (أى غير اليهود) بكل ما يتبع ذلك من ازدواجية في المعايير تجعل الآخر مباحاً تماماً، وتجعل استخدام العنف تجاهه مقبولا (المسيرى، جريدة الأهرام ٢٠٠٠/١١/٧، ص ١١).

واليهود قد وقعوا فى خطأ إدراكى جسيم حين قالوا بأن فلسطين أرض بلا شعب، والواقع اليومى يكذب هذه المقولة، فعلى الرغم من عملية الإبادة والتهجير لازال الشعب الفلسطينى قائماً يطالب بأرضه بعد خمسين سنة من الاحتلال وأصبحت الانتفاضات الفلسطينية مصدر تهديد حقيقى للمستوطنات اليهودية التى زرعها اليهود كسكاكين فى الجسد الفلسطينى لتقتله ولكنها بدلاً من قتله وخزته فاستيقظ.

وإننا إذا ما حاولنا أن ننظر للواقع من خلال عيون مستوطن صهيونى يرى العالم من خلال هذه العدسات الإدراكية فسنجده يقول: إذا ظهر عربى على شاشة وعيى فإنه يتحدى خريطتى الإدراكية، المفروض أنه غير موجود، وإن تجاسر وطالب بحقوقه، فهذا دليل على جهله وتخلفه، ولا بد من تلقينه درساً، وإن بدأ يتحرك نحوى، أنا اليهودى عضو الشعب المختار وصاحب الحقوق المطلقة، فهذا يعنى أنه إنسان مجنون، وخطر لا بد من القضاء عليه، فالعرب لا يفهمون سوى لغة القوة. هنا يتحول العنف الإدراكى إلى عنف فعلى مسلح، أى إلى إرهاب، فتتطلق الصواريخ والمدافع والطائرات لتصبح فلسطين أرضاً بلا شعب، أو أرضاً يقطنها شعب لا سيادة له يعيش داخل كالتونات تراقبه العيون الصهيونية المسلحة لتضبط حركته وتجعله يتحرك داخل حدود الإدراك الصهيونى، وحينما يطالب الصهاينة الفلسطينين بالجلوس معهم على مائدة المفاوضات فهم يطلبون منهم ذلك وهم قابعون داخل إدراكهم الصهيونى فيعرضون عليهم سلاماً صهيونياً حسب شروط صهيونية يضمن استسلام الفلسطينين، فإن لم يقبل الفلسطينيون بالسلام-الاستسلام، فإن جيش الدفاع الإسرائيلى سيتحرك ليدك المنازل ويسويها بالأرض ليضمن أن الواقع الفلسطينى يتفق مع الإدراك الصهيونى له (المسيرى، جريدة الأهرام، ٢٠٠٠/١١/٧، ص ١١).

ومن مظاهر اضطراب الإدراك الصهيونى تصورهم بأنهم قادرين على نحو الجغرافيا والتاريخ المسلمين والمسيحيين واستبداهما بخرائط وتواريخ يهودية، وأن ذلك يمكن أن يمر بسلام، ولم يستطيعوا رؤية استحالة ذلك تاريخياً وحضارياً وعقائدياً ونفسياً، فهم الآن وإن شعروا بأنهم يحاصرون الفلسطينين إلا أنهم فى ذات الوقت محاصرون من كل الجهات بشعوب عربية وإسلامية تمقتهم وتتحين الفرصة للانقضاض عليهم، وأنهم مهما حاولوا تزييف الواقع فإن الجسد العربى يرفضهم ويلفظهم، وأن محاولة اندماجهم فى المجتمع العربى بعد تغيير اسمه إلى مجتمع شرق أوسطى هى محاولة يقف دونها التاريخ وتقف دونها الجغرافيا وتقف دونها العقيدة وتقف دونها الطبيعة العنصرية للإسرائيليين.

٤ - شعب الله المختار

إن جميع البحوث الاجتماعية والتاريخية والأنثروبولوجية تؤكد أن اليهودى يعتبر من أبعد الجماعات البشرية عن النقاء العنصرى الذى يدّعيه، وفى ذلك يقول العلامة السويسرى أوجين بيتار: «إن جميع اليهود فى نظر علماء الأنثروبولوجيا، على الرغم مما يدّعيه اليهود المنضون تحت الفكرة العنصرية الإسرائيلية، بعيدون عن الانتماء إلى جنس يهودى» (بيتار، ١٩٢٤).

وكما يقول رينان: «لا توجد سحنة يهودية، بل هناك عدّة سحنات يهودية». وليس هناك أصح من قوله هذا، فنحن لا نستطيع أن نعتبر اليهود الحاليين مكونين لكتلة بشرية ذات عنصر واحد، ولا حتى فى فلسطين، بعد أن جرّت إليها الحركات الصهيونية كثيرًا من الإسرائيليين دون اختيار أو تمييز. فاليهود ينتمون إلى طائفة دينية واجتماعية، اندمج فيها فى كل عصور التاريخ أشخاص من أجناس متباينة، وكان أولئك المتهودون يدخلون فيها من جميع الآفاق المسكونة بالبشر، من اليهود الأحباش - الفلاشة - إلى اليهود الأشكناز - من الجنس الجرمانى -، إلى التاميل - اليهود الأفارقة الزنوج -، إلى اليهود الهنود الذين يسمّون بنى إسرائيل، واليهود الحزّر الذين ينتمون إلى الجنس التركى. فهل هناك من هذه الأنواع الإسرائيلية نوع يعتبر من ناحية التشريح والتحليل ممثلاً حقيقياً ونقياً للجنس اليهودى؟... ويستمر عالم الأجناس السويسرى فى تحليل كل نوع من الجاليات اليهودية فى العالم، من حيث القامة والجمجمة والهيكل العظمى والتقاطيع ولون البشرة والشعر والعينين وشكل الأنف وغيرها من المميزات البيولوجية، ليخرج بنتيجة حاسمة، وهى أن الدعوى العنصرية التى يجاهر بها اليهود من ناحية وأعداء اليهود من ناحية أخرى ليست إلا ادعاءً خرافياً من نسج الخيال (ظا ١٩٩٠).

وقد اتصل الشعب العبرانى - منذ عهد إبراهيم خليل الله إلى أن قامت لهم دولة وإلى أن أعيدت لهم دولة حديثة - بأمم عديدة وامتص كثيراً من عاداتهم وتقاليدهم الدينية، وامتزج أيضاً بهم بالمصاهرة وغير المصاهرة، فلم تبقَ ديانتهم نقية خالصة كما تركها أنبياؤهم، ولا دماؤهم نقية كما يدعون وكما يعوهم بعض الناس (شلبى، ١٩٩٧).

ومع هذا، فإن الاعتقاد الخرافى يشكل مرجعية معرفية وعقائدية لدى اليهود تشكل على أساسها سلوكياتهم مع بقية البشر، وهم يستخدمون هذه المفاهيم الخرافية للإبقاء على تماسكهم وترابطهم عبر المراحل التاريخية المختلفة... وقد اكتشف اليهود أن هذه المعتقدات - على الرغم من جلبها لكراهية الآخرين لهم -

كانت تضمن لهم البقاء ومقاومة عوامل الإبادة والفناء، حيث عاشوا منذ السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد، والتشريد الروماني منذ القرن الأول الميلادي، يصارعون عوامل الفناء. وكانوا يعبرون عن هذه المعتقدات الخرافية بالفاظ مثل: أبناء الله.. أحباب الله.. حلفاء الله.. وبأن الله لن يعذبهم.. وأن بقية البشر مسخرين لخدمتهم.. وأنهم الأقوى والأصلح.

«إن اعتقاد اليهود في اختيار الرب لهم ليس مجرد مفسرة يتشددون بها، بل هو برنامج، أنهم يعاقب الله الأمم الأخرى، وهم الذين يبقون وحدهم في آخر الزمان، متسلطين على رقاب العالم، وهم باختصار الذين يلعبون دور البطولة على هذا المسرح الهائل، مسرح التاريخ، والأمم الأخرى ليست إلا أشخاصًا ثانوية خلقها الله لتكملة مشاهد هذه المسرحية الطويلة وحوادثها، على نحو تظل فيه البطولة لإسرائيل. ومن هنا تبرز خطورة النفسية الإسرائيلية على أمم العالم، ويتضح مدى احتياجها لعلاج ناجع -لا بد أن يكون مرًا- حتى تصحو من غرورها لتندمج في أمم هذا العالم.. والداء الذي نشير إليه مزمن عند القوم. ففي مصطلحاتهم لجدهم يسمون أنفسهم أيضًا "الشعب الأزلي" -بالعبرية: عام عولام- كما يسمون أنفسهم "الشعب الأبدى" -بالعبرية: عام ينصح- وهكذا تطاولوا على الرب -ولو مجازًا- فتخللوا أنهم يشاركونه في أزليته وأبديته، وأنهم مثله لا أول لهم ولا آخر، ولا بداية ولا نهاية. وهو قول كبير، أحس بعض مفكريهم بفداحته، ففسروه على أنهم من أقدم شعوب العالم، وهو المقصود بالأزلية، ومن أديم شعوب العالم، وهو المقصود بالأبدية. وهي دعوى خرافية حتى بعد هذا التخفيف الشديد، فاليهود كما يعلم الجميع ليسوا أقدم من الفراعنة، ولا من سومر وبابل وأشور، ولا من الهنود أو الصينيين ولا من العرب، وهم أيضًا ليسوا أطول دوامًا من كثير من تلك الأمم» (ظا ١٩٩٠).

ولم يسلم من الإيمان بهذه الأسطورة عالم مثل فرويد يدعى الموضوعية ويتظاهر بالإلحاد ويحاول أن يفسر كل الظواهر الدينية على وجه العموم تفسيرات نفسية جنسية، إلا أنه حين يتعرض للتاريخ اليهودي وللمعتقدات الدينية، لجده يتحدث كحاخام يهودي وينسى تحليليته وحياده العلمي ويتورط في الإيمان بالفكر الخرافي والأسطوري، ولناخذ بعض الأمثلة من أقواله للتدليل على هذا الاتجاه. يقول فرويد: «إن موسى نزل إلى اليهود، جعلهم شعبه، إنهم شعبه المختار» (فرويد ١٩٥٥).

ويقصد فرويد من شعبه المختار هنا أن موسى والإله كليهما لم يكونا من

شعب اليهود، وأن موسى والإله كليهما كان غريبًا على اليهود، وحيث إن موسى قد ترك شعبه المصرى وبشر اليهود بدينه الجديد، فلقد صار اليهود شعبه المختار أى الذى اختاره بديلاً عن شعبه المصرى (الحفنى ١٩٧٣).

ويحاول فرويد أن يعيد كتابة التاريخ القديم من منظور يهودى دون أن يكون لديه القدر الكافى من التوثيق التاريخى، والهدف النهائى لذلك هو تدعيم فكرة "الشعب المختار"، فهو يذهب إلى أن موسى ربما كان من أتباع إخناتون، ولما فشلت دعوة إخناتون فى مصر حملها موسى إلى خارج مصر بتأييد من اليهود. ولنقرأ ما قاله فرويد:

«وربما كان هناك رجل من خلصاء إخناتون يدعى توتمس (Thothmes) كما كان يدعى الكثيرون فى ذلك الوقت (وقد كان هذا الاسم كما يقول فرويد فى الحاشية هو اسم المثال الذى اكتشف مرسه فى تل العمارنه) ولا يهم الاسم ولكن الجزء الثانى من اسمه لابد كان موسى Mose، وكان يشغل منصبًا كبيرًا، وكان من المؤمنين المقتنعين بديانة آتون، ولكنه كان على نقبض الملك المتأمل، كان ذا قوة وعاطفة متدفقة، وكان موت إخناتون والقضاء على ديانتة يعنى بالنسبة لهذا الرجل نهاية كل آماله، ولم يكن يستطيع أن يبقى فى مصر إلا منفياً أو أن يرجع عن دينه وينكره. وإذا كان حاكمًا لإقليم من أقاليم الحدود فمن المرجح أنه اتصل بقبيلة سامية معينة كانت قد هاجرت من بضعة أجيال، وتحول فى يأسه وفى وحدته إلى أولئك الأغراب وبحث فيهم عن تعويض لما كان قد فقده، واختارهم ليكونوا شعبه، وحاول أن يحقق من خلاصهم مثله، وبعد أن غادر مصر معهم، يصحبه أتباعه الملاصقون، باركهم بختانهم ومنحهم الشرائع، وبشرهم بديانة آتون التى كان قد نبذها المصريون تَوًّا» (فرويد ١٩٥٥).

«ونحن نعرف أنه من بين كل الشعوب التى عاشت فى الزمن القديم فى حوض البحر الأبيض، ربما كان الشعب اليهودى هو الشعب الوحيد الذى مايزال يوجد له اسم، وربما كذلك طبيعة؟ فلقد تحدى سوء الطالع وسوء المعاملة بقوة لا مثل لها فى المقاومة، واكتسب صفات خاصة، واكتسب بشكل عارض الكراهية القلبية لكل الشعوب، وإن الإنسان ليحب أن يفهم فهمًا أكثر وعيًا من أين جاءت هذه المقاومة التى يتحلى بها اليهودى، وكيف يرتبط تكوينه الخلقى بمصيره. وقد بدأ من صفة خلقية لليهود تحكم علاقتهم بالشعوب الأخرى، ولا شك أن اليهود يحتفظون بفكرة عالية عن أنفسهم، ويعتقدون أنهم أبلى من غيرهم، وعلى مستوى أعلى، وأكثر تقدمًا من الآخرين الذين تفصلهم عنهم عادات كثيرة لهم (وينبغى قراءة

الإهانة التي كانوا يتقدمون بها كثيرًا في العصور القديمة بأنهم مجذومون باعتبارها إسقاطًا معناه "إنهم يتعدون عنا كما لو كنا مجذومين". وبالإضافة إلى ذلك فإن ثقة خاصة بالحياة تملأهم، كالتى يضيفها الامتلاك الغامض لموهبة، وهى نوع من التفاؤل يطلق عليه المتدينون "الثقة فى الله". ونحن نعرف سبب مدافعتهم ذاك، وما هو كنزهم الثمين، فهم يصدقون فى الواقع ما يقولونه عن أنفسهم من أنهم شعب الله المختار، ويؤمنون بأن الله قد قربهم منه بصفة خاصة، وهذا هو ما يملأهم فخرًا وثقة. وتقول كتب التاريخ الموثوق بها إن اليهود كانوا يتصرفون فى أيام الرومان واليونان مثلما يتصرفون الآن، فالطابع اليهودى لذلك كان حتى فى ذلك الوقت مثلما هو الآن، ولقد قابل الإغريق الذين عاش اليهود بينهم ومعهم الخصائص اليهودية بنفس الطريقة التى يقابلها بها "مضيفوهم" اليوم، ولقد يظن المرء أنهم تصرفوا كما لو كانوا هم أيضًا يعتقدون فى الأفضلية التى يدعيها الإسرائيليون لأنفسهم، فعندما يقال إن أحد الناس هو الابن المفضل للأب المهرب الجانب فلا حاجة إلى إبداء الدهشة من غيرة إخوته الآخرين وأخواته. ويبدو أن الجرى الذى اتخذته تاريخ العالم يبرر هذا الغرور اليهودى، لأن الله عندما وافق فيما بعد على أن يرسل مسيحًا ومخلصًا إلى البشرية، اختاره مرة أخرى من بين الشعب اليهودى، وكان يحق للشعوب الأخرى حينئذ أن تقول: إنهم على حق فعلاً؛ إنهم شعب الله المختار. وحدث بدلاً من ذلك أن الخلاص عن طريق يسوع المسيح لم يجلب على اليهود إلا كراهية أقوى، بينما لم يستفد اليهود أنفسهم من هذا البرهان الثانى على إثبات الله لهم، لأنهم لم يعترفوا بالمخلص» (فرويد ١٩٥٥).

٥ - عقدة الاضطهاد

ربما كان أقرب مدخل للشخصية اليهودية هو مدخل عقدة الاضطهاد التي حملوها معهم منذ نشأتهم المبكرة، وبدلاً من علاجها بفعل الأحداث أو بفعل الزمن أو بفعل محاولات الحكماء منهم ومن غيرهم، فإن هذه العقدة كانت تكبر وتتضخم عبر العصور وتنطلق منها سلوكيات مميزة لليهود منها الحذر والتوجس والعزلة والعدوانية ومحاولة السيطرة على مراكز القوة في المجتمعات والاحتيايل والخداع...إلخ.

وحين تذكر كلمة الشتات يتبادر إلى الذهن الشعب اليهودي، فقد كان سلوكه يدفع الأمم الأخرى إلى تشتيته في الأرض، ولا نستطيع أن نوجه اللوم إلى كل شعوب الأرض على مر العصور حين كانت تسلك هذا المسلك مع اليهود ولكننا نستطيع بسهولة أن نتلمس دور اليهود فيما يحدث لهم، وهذا أشبه بالنظرية التي تقول بأن للضحية دوراً هاماً فيما حدث لها، وهذا الدور تلعبه الضحية بشكل واع أو غير واع فتدفع الجاني إلى الإتيان بفعله تجاه الضحية.

ولسنا هنا بصدد سرد وقائع تاريخية لاضطهاد اليهود وتشتيهم عبر التاريخ، فهذه وظيفة الكتب التاريخية، وإنما يعيننا هنا الجانب النفسي في الأحداث الذي نحن بصده في هذا الكتاب، وإذا عرضنا لبعض الأحداث التاريخية نستعرض لها بشكل موجز وعابر لاستخلاص العبرة.

والشتات ظاهرة كثيرة الوقوع في تاريخ اليهود، حتى قبل ظهور هذه الكلمة. والحقيقة أن اليهود قد تصوروا وضعاً طبيعياً لكيانهم كان في جوهره منافياً للطبيعة، وبنوا على هذا التصور كل شعورهم بالاضطهاد، فكم من قوم يتبعون ديناً واحداً وليسوا من أصل واحد، ولا يطالبون بوطن واحد. فالإسلام والمسيحية والبوذية مثلاً تضم مؤمنين بتلك الشرائع من جميع الأعراق والأوطان. لكن حدث أن استطاع اليهود في فترة قصيرة من تاريخهم أن يتجمعوا في أرض لم تكن لهم، هي فلسطين، التي تقول عنها التوراة نصاً: «وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه، في أرض كنعان» (التكوين ٣٧: ١)، ثم يتحول تجمعهم هذا إلى مملكة قصيرة الأجل، تعاقب على عرشها شاول وداود وسليمان في مستهل الألف الأولى قبل الميلاد. ثم راحت هذه المملكة تضمحل، إذ انقسمت إلى مملكتين صغيرتين ضعيفتين بعد موت سليمان مباشرة، ولم يكن من المتصور سياسياً أو اجتماعياً أن يبقى هذا الكيان الغريب في فلسطين، وأن يقاوم الفراعنة والآشوريين والكلدانيين. كانت إحدى هاتين المملكتين -وتدعى إسرائيل- تشغل منطقة كبيرة في شمال فلسطين، وتتخذ لها

هناك عاصمة هي السامرة في قضاء نابلس.. أما الأخرى فكانت مملكة يهوذا، في جنوب البلاد بعاصمتها "أورشليم". وزالت المملكة الأولى سنة ٧٢٠ ق.م عندما انقضت عليها الجيوش الآشورية وقد فرض عليهم الشتات على الرهينة... أما المملكة الثانية فزالت سنة ٥٨٦ ق.م على يد مختصر الكلداني، وقد ضرب عليهم نوع آخر من الشتات؛ إذ نقل الكلدانيون كل من له قيمة في جماعتهم إلى العراق -أرض بابل- حيث فرضت عليهم إقامة إجبارية، تقول الروايات إنها تحول موضع كان في العراق اسمه "تل أبيب" على نهر الخابور (حزقيال ٣: ١٥). وقد حرصت الصهيونية الحديثة على الإبقاء على نار الحقد اليهودي منذ هذا الحادث الذي يسمى في تاريخهم "السبي البابلي" فسمت معقل الصهيونية الأكبر في فلسطين "تل أبيب" أيضاً (ظا ١٩٩٠).

وبعد سبعين سنة من السبي البابلي احتال اليهود على قورش الأول في إيران وساعده كي يؤسس إمبراطوريته على أنقاض الإمبراطورية الكلدانية المتهالكة... وأعطاهم في المقابل وعداً بالعودة إلى فلسطين يشبه وعد بلفور في العصر الحديث. وفي سنة ٧٠ ميلادية تنبه الإمبراطور الروماني "فسبازيان" إلى تأمر اليهود وخيانتهم فأرسل من الإسكندرية جيشاً كبيراً يقوده ابنه "تيتوس" فدمر الكيان اليهودي الضئيل المشاغب... ومن هذا التاريخ تفرق اليهود في العالم كله.

وقد واكب هذا انتشار الدين المسيحي في فلسطين وانتشر إلى ما حولها واعتنق الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول المسيحية، وحين علم بعودة اليهود سرّاً إلى فلسطين ونبهه عدد من القديسين وآباء الكنيسة الأقدمين (في مجمع نيقية المسكوني الأول سنة ٣٢٥ ميلادية) إلى جرم اليهود وتأمرهم على حياة المسيح، أصدر مرسوماً بإغلاق مدارسهم التلمودية في فلسطين... ولكن اليهود استمروا في ممارسة نشاطاتهم السرية.

وهكذا كانت الفترة من ٧ إلى ٣٣٠ ميلادية مرحلة انتقال لليهود من فلسطين إلى الشتات بصور مختلفة، انتهت بتضافر القوة الرومانية مع العقيدة المسيحية في الضغط على اليهود. وأخيراً أخذ هؤلاء اليهود يتفرقون ويمعنون في البعد عن مراكز الاضطهاد إلى أبعد ما استطاعوا الوصول إليه من بلاد العالم، حيث عاشوا في هذا الشتات تتضخم في نفوسهم عقدة الشعور بالاضطهاد، ويتضخم معها الحقد على أمم العالم، فلا يبقى لهم حل بعد ذلك إلا العزلة التي ألقت بهم في النهاية في "الجيتو" (ظا ١٩٩٠).

وحين ظهر الإسلام في الجزيرة العربية واتخذ من المدينة المنورة قاعدة

للاطلاق كانت توجد ثلاث قبائل يهودية فى ذلك الوقت هم : بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، وكانوا يعيشون على الربا وتجارة السلاح وبث الفرقة بين أكبر قبيلتين يقطنان يثرب وهما الأوس والخزرج اللذين قامت بينهما حروب كثيرة بسبب الدس اليهودى.

وحين بدأ المجتمع المسلم يتكون وتقوى شوكتة شعر اليهود بالقلق، وبدلاً من الاندماج فى المنظومة الاجتماعية الجديدة راحوا يحاولون تفتيتها بإثارة النزعات القبلية والعرقية والدينية، ولكن المجتمع الإسلامى الناشئ كان عصياً على تلك المؤامرات. وعقد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم معاهدة للتعایش السلمى المنظم فى مجتمع المدينة، ولكن اليهود لم يحترموا نصوص هذه المعاهدة وراحوا يتآمرون فحاولوا قتل الرسول صلى الله عليه وسلم بإلقاء حجر من أعلى الحصن على رأسه أو بتهديد الوثام الاجتماعى الناشئ فى المدينة، وأخيراً كان التآمر الأكبر فى غزوة الأحزاب حيث هم بنو قريظة بالخيانة وذلك باتفاقهم على السماح لجيش قريش أن يدخل من ناحيتهم، ولكن هذه المؤامرة أحبطت بشكل خارج عن إرادة اليهود، وكان نتيجة كل هذه الأحداث إجلاء بنى قينقاع وبنى النضير عن المدينة، وقتل رجال بنى قريظة وسبى نسايتهم وأطفالهم. ولم تتوقف مؤامراتهم بل ذهبوا وتجمعوا مرة أخرى فى خير وتحصنوا بالحصون وراحوا يدبرون المكائد للمجتمع المسلم فلم يكن هناك بد من محاصرتهم فى حصونهم حتى سلموا ودفعوا الجزية.

وعلى الرغم من كل ما حدث، فقد استطاع اليهود العيش فى سلام فى المجتمعات الإسلامية ومارسوا عباداتهم وكل نشاطات حياتهم فى حرية لم ينعموا بها فى أى عصر من العصور، حيث إن مبادئ الإسلام كانت تعطى حرية الاعتقاد والعبادة، ولا تفرق بين الناس بسبب الدين أو العرق أو اللون ﴿لا إكراه فى الدين﴾ قد تبين الرشد من الغي﴿، «لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى». وهكذا استطاع اليهود أن يتنقلوا فى جميع أرجاء الدولة الإسلامية التى أخذت فى الاتساع حتى وصلت إلى أوربا، وذهب اليهود إلى أوربا عن طريق الأندلس وزادت أعدادهم هناك بسبب الحرية التى تمتعوا بها فى ظل الدولة الإسلامية. ولكنهم لم يكفوا عن تأمرهم ضد المواطنين المسيحيين، وتسبب ذلك فى سخط المجتمع المسيحى عليهم.

ثم جاءت الحروب الصليبية فأهبت نار هذا السخط بحيث كثرت حوادث اعتداء الصليبيين على التجمعات اليهودية الواقعة فى طريقها.. واشتدت العداوة بين اليهود والمسيحيين الألمان، وكان من مظاهرها الإفراط فى فرض الغرامات والإتاوات على بعض الجاليات الإسرائيلية هناك، وشجع هذا الخاربيين الصليبيين على التكيل

باليهود، وتكرر الاعتداء عليهم إبان الحملتين الصليبيتين الثانية والثالثة مما سجله كاتب يهودى معاصر لتلك الفترة، هو أفرايم بن يعقوب من مدينة بون الألمانية توفى حوالى سنة ١٢٠٠ م (Max & Alexander 1930).

وكان اليهود فى المقابل لا يرحمون المسيحى عند التعامل معه، فكانوا يستغلون حاجته فيقرضونه المال بالربا الفاحش، وإذا عجز عن السداد سلبوه بيته وجميع مقتنياته، ولذلك تعمقت صورة اليهودى المرابى المستغل، وبسبب ذلك صدرت أوامر رسمية بأن يضع اليهود حلقة على صدورهم لكى تميزهم، وكانت هذه العلامة على صدورهم مدعاة لتعرضهم للإهانة والعنف حتى استنجدوا بالبابا فأمر بالتسامح معهم.

ومع ذلك فقد أحس اليهود بأن المجتمع الأوروبى قد لفظهم، فآثروا السكنى فى أحياء وحارات خاصة بهم، كانت تسمى "حى اليهود" أو "حارة اليهود" أو "اليهودية" فقط. وكانت هذه المستوطنات شديدة الزحام كثيرة القذارة، تنتشر حولها الأقاويل الساخرة الحاقدة. إذ كان الناس يعتقدون أنها مأهولة بالسحرة والمشعوذين، وأن العفاريت تسكنها مع اليهود. بل إن الرسامين فى تلك الفترة تعودوا أن يرسموا اليهودى على شكل الشيطان، له قرنان، وذنب يتدلى وراء قفطان، وقد يكون له طرف مدبب مثل سنان الرمح (Cecil 1953).

وانتشرت كذلك منذ تلك الأزمنة "تهمة الدم" التى تنسب إلى اليهود ذبح بعض المسيحيين وخلط دمهم بخبز عيد الفصح، وهى تهمة سرت فى كل أنحاء العالم، وظلت تنبثق شرقاً وغرباً حتى مشارف القرن العشرين (Albert 1914). وبعد أحداث ساخنة بسبب هذا الموضوع مات فيها الكثير من اليهود بسبب هجوم جموع المسيحيين عليهم، اضطر الإمبراطور فردريك الثانى (١٢٢٠ - ١٢٥٠ م) إلى تخصيص حى مغلق يسكن فيه اليهود وحدهم تأميناً لهم، وتجنباً للاضطرابات.

وفى رأى كثير من مؤرخى اليهود أن هذا الحى كان يسمى بالإيطالية "بورجيتو" أى القرية الصغيرة، ثم تأكلت اللفظة مع الاستعمال، فلم يبقَ منها إلا آخرها "جيتو" الذى انتشر ليصبح اسماً لكل الأحياء اليهودية المماثلة فى أوروبا (ظاظا ١٩٩٠).

وتوالى أحداث التنكيل باليهود بسبب سلوكياتهم العنصرية العدوانية بعد ذلك، وكان آخرها تنكيل هتلر بهم فى الحرب العالمية الثانية، تلك الأحداث التى ضخمها اليهود ليحصلوا على تعاطف العالم معهم وليستصدروا القوانين التى تحميهم -حسب زعمهم- من اضطهاد المتعصبين ضدهم.

وراح اليهود بعد ذلك يبدلون إسقاطاً وإزاحة للصفات الكريهة التي
التصقت بهم على المسلمين، فتحركت آلات إعلامهم الضخمة في كل مكان
وراحت تستغل كل حادث لتلصق بالمسلمين صفات العدوان والإرهاب والتآمر
والعنف والقذارة والخداع... إلخ. وقد وقع البعض في هذا الفخ، فراح يصدق هذه
الصورة النمطية التي ألصقها اليهود بالعرب والمسلمين.

٦ - العزلة

منذ القدم واليهود يفرضون على أنفسهم عزلة شديدة قائمة على التزمّت والتعصب الدينى والعنصرى، ورفض الاندماج فى الأمم الأخرى، ومع استمرار العزلة تزداد الأفكار الترجسية الأسطورية "شعب الله المختار" .. "الشعب الأبدى" .. "الشعب الأزلى" .. "الشعب المقدس"، ويزداد توجسهم ممن حولهم وتوجس الناس منهم، وشيئاً فشيئاً تزداد العداوة المتبادلة بينهم وبين غيرهم فيحاولون هم تقوية أنفسهم على اعتبار أنهم أقلية منبوذة فيعمدون إلى مراكز السلطة والمال والإعلام محاولين السيطرة على المجتمع، وحين ينتبه المجتمع المحيط بهم بهذه النوايا التسلطية يبدأ فى حصارهم... وهكذا حلقة مفرغة تؤدى فى النهاية إلى استمرار العزلة وزيادتها. وكما يحدث على مستوى الأفراد يحدث أيضاً على مستوى الجماعات، فمع العزلة تنمو الأفكار المرضية والمشاعر المرضية والسلوكيات المرضية، وهذا ما نلاحظه بوضوح حيث تنمو الأفكار العنصرية والمشاعر العدائية فى حارات اليهود وفى الجيتوهات وفى المستعمرات والمستوطنات.

واليهود يميلون لأن يضربوا حول أنفسهم سياجاً من السرية حتى لا تعرف الأمم عنهم شيئاً إلا ما يسمحوا هم بالإطلاع عليه. وكان العهد القديم العبرى (أى أسفار التوراة الخمسة، وكتب الأنبياء، وأسفار المآثورات الحكمية) تعتبر عندهم من الأسرار التى يجب ألا تتسرب إلى الجويم. فلما قام أتباع السيد المسيح بإبلاغها إلى غير بنى إسرائيل، بلغاتهم، فكر اليهود فوراً فى إنشاء مستودع فكرى ودينى آخر خاص بهم، ومن هنا لبنت فكرة الشريعة الشفوية (المشنا) وتفسيرها الخاصة (التلمود)، وأعطيت عندهم نفس الدرجة من القدسية التى لتوراة موسى، بل أكثر، حتى تستمر فى داخلها عزلتهم عن العالم، ورفضهم الانفتاح على شعوبه (ظاظا ١٩٩٠).

وتجسيداً لهذا السلوك الانعزالي كان اليهود يبنون الحصون ذات الأسوار العالية لتكون لهم سكنى وحماية، ويتحوصلون فى بؤر خاصة بهم ويقاومون الاندماج مع غيرهم أو الانفتاح على المجتمعات الأخرى، حتى معابدهم كانت أشبه بالقلاع الحصينة يبنونها على قمم الجبال ولا يسمحون لأحد بدخولها على عكس دور العبادة فى الأديان الأخرى التى ترحب بكل إنسان يريد أن يتقرب إلى الله. ومن المفارقات أن اليهود لم يهتموا بدعوة الآخرين لدينهم، بل كانوا يتوجسون ممن يقترب منهم حتى ولو عن طريق الدين الذى يفترض أنه دعوة لهداية البشر دون تمييز. ونتيجة لهذا السلوك أصبح اليهودى فى النهاية -ظالماً أو مظلوماً- شخصية

مشبوهة كريمة في كل المجتمعات، ورأيناه في أوقات كثيرة محروماً من حق امتلاك الأرض وزراعتها، واستخدم العمال غير اليهود، وأخيراً من السكنى في داخل الجماهير، وممارسة الصناعة والتجارة بأمن وحرية. فلم يبق والحالة هذه من مصدر للرزق إلا ما تشمئز منه الفضائل الدينية من أعمال، كالربا والصرفه وبعض الحرف الشاقة أو القدرة كدبغ الجلود، واستخراج الملح، وتقديد الأسماك وسبك المعادن والصباغة، إلى جانب ألوان من الاحتيال وراء ستار السمسرة أو ألعاب القمار والمراهنات. وقد ضاق كثير من المصلحين اليهود بمثل هذا النمط من المعيشة، ووصفوا الذين يأخذون به بأنهم من "رجال الهواء" أي الذين يعيشون بلا ركيزة ولا أساس ويمكن للمجتمع أن يستغنى عنهم (ظاظا ١٩٩٠).

وحين تأمروا لإقامة وطن لهم في فلسطين بعد عصور طويلة من العزلة والشتات، جاءوا ومعهم هذه الصفة المرضية فبنوا المستعمرات المعزولة (المسماة خطأ بالمستوطنات) ووضعوا الحواجز في كل مكان بينهم وبين الفلسطينيين أصحاب الأرض الأصليين وأثاروا عداوة المحيط البشري العربي من حولهم وتوهموا أنهم يستطيعون بذلك العيش في سلام بفرض منطق القوة والهيمنة، على الرغم من استحالة هذا في نظر أي عاقل لديه ولو قدر ضئيل من تقييم الأمور بشكل منطقي، ولكنه السلوك النمطي المتكرر بشكل مرضي لدى اليهود يدفعهم إلى الانتحار في كثير من مراحل التاريخ وهم لا يعون الدرس أبداً من خبراتهم السابقة ويعاودون نفس السلوك الانتحاري مرة بعد مرة ثم يدعون أنهم مضطهدون من باقي الأمم.

ولقد انتبه بعض مفكرهم إلى أن أرض فلسطين تتحول مع الوقت إلى جيتو ضخم لليهود (تحت وهم الوطن القومي) وإلى مصيدة يضع فيها اليهود أنفسهم بأنفسهم لكي يغرقوا في النهاية بفعل الطوفان البشري والحضاري العربي والإسلامي أو بفعل تغير موازين القوى الدولية وعلاقات المصالح في يوم من الأيام، ولكن للأسف الشديد ضاعت أصوات هؤلاء المفكرين سدى ومضى دعاة الصهيونية في غيهم يندفعون نحو الهاوية.

وقد كان أمام اليهود فرصة تاريخية للخروج من عزلتهم لأول مرة في تاريخهم الطويل، فقد حدث تغير كبير في القرن العشرين بعد الثورة الفرنسية في فرنسا وثورة تحرير العبيد في أمريكا، فقد أصبح العالم يتجه نحو رفض العنصرية والتمييز والاضطهاد بشكل أفضل من ذي قبل (على الأقل في التاريخ الغربي)، وقد سهل هذا لليهود اندماجهم في المجتمعات الأوروبية والأمريكية وفتح لهم أبواباً هائلة لم يحلموا بها في يوم من الأيام، غير أن اليهود لم يستطيعوا التخلي عن سماتهم

الانعزالية العنصرية التى تجاوزها الزمن فراحوا يعقدون لقاءاتهم المغلقة ويؤسسون كيانات سرية مشبوهة مثل الماسونية وكانهم يرفضون حركة التاريخ حتى ولو كانت لصالحهم.

وليست هذه هى المرة الأولى التى يرفض اليهود الاستفادة من الفرص المتاحة لهم للعيش بسلام مع المجتمعات من حولهم، فقد رفضوا ذلك التعايش فى المدينة المنورة حين أبرمت معاهدات بينهم وبين المجتمع الإسلامى الناشئ بقيادة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وآثروا الاستمرار فى السلوك العدوانى المتآمر مرة بعد مرة (بنو قينقاع ثم بنو النضير ثم بنو قريظة ثم خيبر) بشكل أجبر المجتمع فى النهاية على نبذهم بعد فشل كل المحاولات للتعايش السلمى معهم.

ومن هنا نلمح هذا السلوك الانعزالى العنصرى العدوانى لدى اليهود وكأنه فعل قهرى مرضى لا يستطيعون مقاومته أو تغييره.

٧ - الهاجس الأمنى ... حالة إدراكية مرضية

إن من يتابع سلوك الإسرائيليين سواء فى الحرب أو فى المفاوضات يدرك بسهولة سيطرة حالة من الخوف الداخلى الشديد على تصرفاتهم فعلى المستوى الحربى نجدهم يهتمون بأحزمة الأمان والمناطق العازلة حولهم، وقد احتلوا جنوب لبنان لهذا الغرض ثم تركوه مضطرين بعد أن اكتشفوا أنه مصدر رعب وليس مصدر أمان واحتلوا سيناء ووصلوا إلى قناة السويس وأنشأوا خط بارليف حتى يضمنوا وجود مانع مائى طبيعى ومانع ترابى (الساتر الترابى الذى أقاموه على شط القناة) ومانع عسكري قوى (النقط الحصينة الممتدة بطول القناة شملت الساتر الترابى). ثم تركوا كل هذا مضطرين حين اكتشفوا أن كل هذه المواقع قد تم اختراقها فى حرب أكتوبر ٧٣ ولم توفر لهم الأمن وأصابتهم حالة من الدعر الشديد لم يهدئها إلا تدخل الولايات المتحدة بالسلاح والضغط السياسى، وهم مازالوا يتمسكون بهضبة الجولان السورية كهضبة استراتيجية تتيح لهم الحماية من أى هجمة سورية، بالإضافة إلى ذلك يطورون سلاحهم النووى كل يوم وهم حالياً يمتلكون -حسب الروايات- حوالى ٢٠٠ قنبلة نووية بالإضافة إلى الأسلحة التقليدية، ولا توجد فى العالم كله دولة بحجم إسرائيل تمتلك كل هذه القدرات العسكرية (التقليدية وغير التقليدية). أما على مستوى المفاوضات، فكان ملحوظاً أن أغلب الوقت يمضيه المفاوض الإسرائيلي فى المراوغة من أجل الوصول إلى صيغة تضمن أمن إسرائيل على الرغم من كل ما تملكه من أسلحة.

وفى ١٨ أكتوبر عام ١٩٧٣ كتب الدكتور/ عبد الوهاب المسيرى مقالاً بعنوان "لا نهاية للتاريخ" أشار فيه إلى أنه بغض النظر عن نتيجة الحرب فإن نظرية الأمن الإسرائيلية المبنية على فكرة الحدود الجغرافية الآمنة، والتي تسقط عنصر الزمان قد انتهت لأن العرب أثبتوا مقدرتهم على تطوير أنفسهم بمرور الزمن، وحينما حانت اللحظة المواتية، تحركوا وألحقوا الهزيمة بالعدو الذى أدرك بعدها أن الأمن لا يوجد فى المكان وحسب، وإنما يوجد فى الزمان أيضاً، وأنه ليس مسألة خاصة بالعلاقة بالجبال والحواجز المائية والترابية، وإنما أمر يتعلق بالعلاقة مع البشر. والإسرائيليون لا يخشون الجيوش العربية فحسب، وإنما يخشون الشعب الفلسطينى الأعزل أيضاً، ولذلك حرصوا فى كل الاتفاقيات على أن يعطوه مساحات متقطعة يعيش فيها، وغرسوا بينها مستوطنات يهودية ظناً منهم أن ذلك يتيح لهم السيطرة على الفلسطينيين.

فشمة إحساس عميق لدى المستوطن الصهيونى بأن العربى الغائب لم يغيب،

وأن وجود الشعب الفلسطيني لا يهدد حدود الدولة أو سيطرتها على أجزاء من الأرض الفلسطينية وحسب، وإنما يهدد وجودها كله. والإسرائيليون دارسون نهمون لتجربة استيطانية سابقة تمت في نفس المكان وهي تجربة حرّوب الفرنجة، وممالك الفرنجة التي دامت نحو قرنين من الزمان، ورحل أصحابها ولم يبق من آثارهم سوى بعض الأطلال. ولهذا السبب يتعمق الهاجس الأمني على مر الأيام، لا يسكنه شيء، ومهما قدم العرب من تنازلات، يظل الهاجس الأمني قائماً، وكأنه لا علاقة له بالواقع، فهو حالة إدراكية مرضية لها جذور عميقة في الواقع (المسرى - جريدة الأهرام ٢٠٠٠/١١/٧).

فالكيان الصهيوني بطبيعته البارائوية يحمل في داخله كل مشاعر العدوان نحو الآخرين وهو يسقط هذه المشاعر عليهم، ولذلك يظل خائفاً ومتوجساً منهم مهما قدموا له من ضمانات الأمن، بل على العكس كلما قدموا له ضمانات جديدة تشكك في مراميها وظن أنها خدعة جديدة أو مؤامرة تحاك ضده.

والأمر لا يتوقف على هذا الخوف الداخلي النفسى البارائوى وإنما هناك أيضاً أسباب خارجية موضوعية تبرره منها مثلاً أن المجتمع الإسرائيلى فى حقيقته مجتمع مفكك مهلهل تكون من مجموعات جاءت من أشتات الأرض لا يجمعها على أرض فلسطين سوى أسطورة عششت فى رؤوس المتطرفين من اليهود سرعان ما تبخر بفعل نيران المواجهة مع الواقع ومع الفلسطينيين أصحاب الأرض ومع ٢٥٠ مليون عربى ومليار مسلم. فهم يدركون جيداً أنهم يعيشون فى "جيتو" على أرض ترفضهم ووسط محيط بشرى عربى وإسلامى هائل يكرههم ويتحين الفرصة لابتلاعهم.

هذا الهاجس الأمنى ولد إحساساً عميقاً باليأس لدى الإسرائيليين، فالمؤرخ الإسرائيلى يعقوب تالمون يتحدث عن "عقم الانتصار" بعد أن رأى الجيش الصهيونى ينتصر فى حرب تلو الأخرى ولا يحقق شيئاً لأن الشعب الفلسطينى يرفض الاختفاء ولأن الشعب العربى لا يتوقف عن تأييد الفلسطينيين وأن الشعوب الإسلامية لا تزال مستمسكة بالقدس وبأرض فلسطين (المسرى، جريدة الأهرام ٢٠٠٠/١١/٧، صفحة ١١).

٨ - الاغتراب

إن الاغتراب هو حالة يبدو معها الشخص وكأنه غريب عن المجتمع الذى يعيش فيه، إنه التوافق العصابى بعامة، حيث الهوة تزداد بين الفرد وعالمه (عبد القادر ١٩٩٣).

وبتطبيق هذا المفهوم على المجتمع الإسرائيلى نجد أن الكثيرين منه يعيشون حالة اغتراب لا يجدون منها خلاصاً. فنظراً للطبيعة غير المتجانسة لهذا التجمع اليهودى الصهيونى تشعر كل طائفة بغربتها وسط الطوائف الأخرى فلا يجمعهم فى هذه الأرض الغريبة عليهم سوى حلم أسطورى توراتى لا يستطيع دعم منظومة نفسية صحية تجعل الشخص يشعر بالانتماء الحقيقى لهذا المجتمع حيث تقف أمامه عقبات الانتماءات الطائفية بمستوياتها المختلفة (طائفة الاشكناز الغربيون وطائفة السفاراديم وطائفة اليهود الشرقيون)، وعقبات الانتماءات الدينية (اليهود التوراتيون المتشددون مقابل العلمانيون)، وعقبات اللغة (لغات متباينة ولهجات متعددة يحاولون تجاوزها بفرض اللغة العبرية الميته)، وعقبات الموقف من الآخر (الحمايم والصقور)، وعقبات الخوف وانعدام مشاعر الأمان حيث يقيم على أرض ترفضه ووسط محيط عربى يمجته. يضاف إلى هذه العقبات عقبة أخرى شديدة الأهمية صنعتها إسرائيل من حيث لا تدري وهى تدخل المستوطنات وسط المجتمع العربى الفلسطينى وكان الهدف منها أمنياً حيث يتيح الفرصة لاختراق الجسد الفلسطينى ووضعه تحت المراقبة الصهيونية طوال الوقت، ولكن هذا الوضع جعل المستوطن الصهيونى يشعر بالغربة والرفض وسط المجتمع الفلسطينى الذى يرفضه ويهدده. ولم تفلح اتفاقيات السلام الهشة، ولم تفلح ترسانات الأسلحة، ولم يفلح التأييد الأمريكى فى طمأنة المستوطن الصهيونى على حاضره أو مستقبله فكانت حالة الغربة والاغتراب هى المصير المحتوم. وتختلف شدة هذه الحالة من طائفة لأخرى ولكنها تبدو أكثر حدة فى اليهود الشرقيين الذين يشعرون بكل ما سبق بالإضافة إلى شعورهم باستعلاء واحتقار اليهود الغربيين (الاشكناز) لهم.

ويمكن أن نلمح بوضوح هذا الاغتراب فى الأدب الإسرائيلى فها هو "يوسف حايم برينز" أحد أبرز كتاب الأدب العبرى الفلسطينى يقول:

«وهنا (فى فلسطين) يظهر أنه لا فرق .. المنفى فى كل مكان .. لا فرق .. لا أمان .. فيم تأمن هنا؟ ملاك الموت فى كل مكان، وعيونه فى كل مكان تذهب إليه.. نفسى خاوية من الحلم.. ولكن إذا كان لا يزال هناك يهود فى العالم، وإذا كان لابد من التحدث ويصلهم صوتى لصرخت قائلاً: لا تعلقوا آمالكم على هذا

الحلم !! إنه حلم أجوف، حلم باطل بكل صورته.. وإذا كان هناك بقايا من شعب، وإذا كان في مقدورهم أن يشعلوا شموعهم في أماكن تواجدهم ليفعلوا ذلك وليكن وجودهم هناك» (حماد ١٩٩٦).

ويشعر الإسرائيليون -نتيجة للعوامل سابقة الذكر- باضطراب شديد في الهوية يعبر عنه "شلو مو آفايو" وهو شاعر إسرائيلي فيقول:
«إن القضية التي نواجهها هي قضية الهوية. وهذه القضية هي قضية كل المجتمع الذي يبحث عن إسرائيل وهي محملة في داخلها بثرات ثقافي خاص بها، يختلف في جوهره أشد ما يكون الاختلاف عن التراث الذي جلبته كل جماعة. ولا أستطيع أن أكون في حل من تراثي وتراث آبائي الذي جلبته من الشرق» (حماد ١٩٩٦).

ولا يتوقف الاغتراب على الحاضر بل يمتد إلى الماضي، إلى التاريخ اليهودي نفسه، ويعبر عن ذلك "حاييم هزاز" بصرخته:
«إنني أريد أن أعرف ماذا فعل هنا في فلسطين؟! إنني لا أحترم التاريخ اليهودي، فليس لدينا تاريخ بالمرّة.. لسنا نحن الذين صنعنا تاريخنا وإنما صنعته لنا الشعوب الأخرى.. إنه لا يخصنا بالمرّة» (حماد ١٩٩٦).

وفي اللحظة التي يكتشف فيها الإسرائيلي زيف الحلم وزيف الأسطورة واستحالة الاستقرار على أرض مسلوقة من أصحابها الذين يتربصون لاستعادة أرضهم - في هذه اللحظة يتحسر الإسرائيلي على تركه لجذوره الحقيقية في بلده التي قدم منها والسيافه وراء سراب تسوّقه له كهنة الصهيونية، فها هو "أمّون شاموش" السوري الأصل، يتحسر على الرخاء والازدهار، وكذا الأمان النفسي الذي طالما تنعم بهم قومه من اليهود في الأندلس، وفي ظل حضارة الإسلام:

بيتي في الشرق... وأصبوا بنظري إلى الأندلس

أمدد جسدي على عشب الكيبوتس.. وروحي تحلق في غرناطة

أندلسي أنا.. ومن الأندلس ارتحلت أسرتي

ويحاول أن يتصبر - في أمله الإسرائيلي - بالحنين إلى ما كان من معاش أهله الآمن في سوريا الإسلامية (الرفاعي ١٩٩٦):

بيت أبي وأمي في حلب .. يجذب الناظرين

وبيتي في الجليل ألم .. ألم على أرض أخرى

ويتحسر آخر، من أصل عراقي ويدعى "بلفور حقايق" على الماضي

"الذهبي" الذي تبدد في "حاضر" إسرائيل (الرفاعي ١٩٩٦):

وهاجر جدى
كما هاجر إبراهيم من "أور"
هاجر من نفس الأرض

.....
.....

وفقد مجده
وفقد سلطانه ونفوذه
واكتسى وجهه بالحزن
وفسد المال

وضاع الذهب
ورغم كل الجهود التى تبذلها حكومة إسرائيل لصهر اليهود فى بوتقة الدولة
اللقبطة، فإن اليهود- الشرقيون خاصة- يشعرون بالانتماء لأصلهم الحقيقى
ويتبرأون من الهوية الإسرائيلية الزائفة، ويعبر عن ذلك شاعر إسرائيلى من أصل
شرقى يدعى "يوآف حيق" (الرفاعى ١٩٩٦):
شرقى أنا

وكل شمس الشرق تجمعت فى عيني
وقدماى تقودانى غرباً
العربية لغتى
ولغة أُمى خطوط متقاطعة
أبى لم يعرف العبرية

.....
.....

أسود اللون أنا
ومازالت فى قلمى بقايا من خرافات
وشكوكى تتزايد

وهذا شاعر آخر من أصل "يمنى" يعلن من خلال ديوانه "المارش إلى
إسرائيل" الصادر عام ١٩٧٩م -يعلن أن إسرائيل الصهيونية قد سلبته هو
وطائفته- دينهم الذى كانوا يتعبدون به (الرفاعى ١٩٩٦):

لم يعد منظرًا طبيعيًا وا أسفاه
أن ترى طائفة اليمن ملقفة حول مواثدها ،
منتظرة مجيء المسيح !
لم نعد نراهم يتدارسون الشريعة

.....
.....

لم يعد أبى ينعم بالهدوء
أقولها إنى لم أعد أهلاً للثقة
المسيح لن يأتى من اليمن

وهذا الشعور بالاغتراب ثمرته الاكتئاب واليأس والرغبة فى العودة إلى
الوطن الأصلي الحقيقى الذى نرح منه اليهود (سواء منهم الشرقيون أم الغربيون،
وهذه الرغبة تساور الكثير من اليهود فى إسرائيل وخاصة بعد العمليات
الاستشهادية التى قام بها الفلسطينيون داخل المجتمع الإسرائيلى وأثارت فزعه وأيضًا
بعد التصار حزب الله فى جنوب لبنان.

٩- الصراع الطائفي

لعل من أبرز سمات المجتمع الإسرائيلي هو عدم تجالسه حيث يتكون من طوائف متباينة الجذور والغايات، ولم تفلح كل الجهود الحكومية لد جسر بين تلك الطوائف فضلاً عن محاولة صهرها في بوتقة المجتمع الإسرائيلي، وكذلك من الخطأ أن نقول بوجود مجتمع إسرائيلي (على الرغم من استعمالنا لهذا المصطلح كثيراً على وجه التبسيط، وهو تبسيط محل بالضرورة) وإنما الأصوب أن نقول: الطوائف الإسرائيلية. ويدرك القائمون على الحكومات الإسرائيلية عمق هذه التركيبة الطائفية المتنافرة لغوياً وثقافياً وجغرافياً ودينياً، ولذلك يحاولون إيجاد قواسم مشتركة عليها تجمع بين هذه الأشتات، فيعملون على استثارة النعرة الدينية في أعماقهم، ويفعل ذلك الكثير من السياسيين العلمانيين رغم عدم اعتقادهم في الديانة اليهودية أصلاً، ويحاولون أن يؤصلوا فكرة "الشعب اليهودي الواحد" وفكرة "الوطن القومي" وفكرة "العودة من الشتات"، ولكن كل هذه الدعوات يثبت فشلها في الواقع اليومي.

وهناك ثلاث طوائف أساسية في إسرائيل وهي:

- طائفة الإشكناز
- طائفة السفاراديم
- طائفة اليهود الشرقيون

وإذا كانت أسبانيا هي المصدر الأول بالنسبة لليهود السفاراديم، الذين أصبحت تمثلهم المنطقة الجغرافية التي تشمل جنوب أوروبا وحوض البحر الأبيض المتوسط، فإن ألمانيا تعد المصدر الأساسي لليهود "الإشكناز". وبسبب طبيعة هذا التكوين، يعتبر الإشكناز أنفسهم -دون سائر طوائف اليهود- الأعلى ثقافياً وحضارياً، وكان من المؤكد أن يحدث الصدام بينهم وبين السفاراديم على وجه خاص، لكون السفاراديم "يعدون أو يدعون أنفسهم أرستقراطية اليهود على الأساس الديني". وعلى أي حال فإن المواجهة هنا تميل إلى التكافؤ بنوع ما، وإن كانت الغلبة فيها للإشكناز لكثرتهم العددية، ولتميزهم الحضاري، ولكونهم -بالفعل- يمثلون أقطاب الصهيونية الحديثة (حمدان ١٩٩٦).

أما ثلاثة الطوائف اليهودية .. اليهود الشرقيون، فهؤلاء يستمدون أصولهم القديمة من فلسطين، وإليهم تنتمي مستعمرات في شمال إفريقيا وفلسطين، ثم مستعمراتهم في العراق واليمن، ثم القوقاز وإيران والتركستان الروسية وكذلك الهند والصين.. وهؤلاء - كما يقول الدكتور جمال حمدان - وإن كانوا - نظرياً أقرب إلى الأصول الفلسطينية فإنهم الأقل عدداً والأدنى مرتبة في الهيراركية (التسلسل

الهرمى) اليهودية، حيث ينظر إليهم كل من الأشكناز والسفاراديم نظرة احتقار وإزدراء بلا موارد. ويمثل الإشكناز من ٨٠-٨٥٪ من يهود العالم، أما السفاراد فلا تتعدى نسبتهم ١٢-١٥٪ من يهود العالم. وقد شكل الإشكناز نحو ٩٠٪ من يهود إسرائيل عند قيام الدولة اليهودية، بينما كانت نسبة السفاراد ١٠٪.. وهنا يجب أن نسجل أن اليهود الشرقيين غالبًا ما ينضوى وجودهم تحت نفس مسمى السفاراد (فراج ١٩٩٩).

والمجتمع الإسرائيلي بهذه التركيبة الطائفية يشبه قبيلة قابلة الانفجار فى أية لحظة، ولكن يؤجل انفجارها وجود التهديد العربى المحتمل فى أى لحظة، وربما يكون هذا هو العامل الأهم فى التماسك المؤقت لهذا المجتمع، وقد كان الداعون إلى السلام يراهنون على هذا الاحتمال حيث يتوقعون انهيار المجتمع الإسرائيلى بسبب الصراعات الطائفية فى حالة حدوث سلام بين العرب وإسرائيل، وربما هذا هو السر فى إصرار قادة إسرائيل على عدم إتمام اتفاقيات السلام حتى لا يتفجر الشعب الإسرائيلى من الداخل، فهم حريصون دائماً على إطالة مدة الصراع مع العرب كبديل للصراع الطائفى الداخلى. وهم لا يكتفون بذلك بل يحاولون إسقاط التركيبة الطائفية على المجتمعات المجاورة فمثلاً يعملون على إثارة النزعة الطائفية بين المسلمين والأقباط فى مصر بحجة المحافظة على حقوق الأقلية القبطية فى مصر وهم يستخدمون الكونجرس الأمريكى والمؤسسات الأمريكية والصهيونية للترويج لهذه الفكرة. وكانوا أيضاً متورطين فى إثارة النزاعات الطائفية فى لبنان، وفى إثارة النزاعات بين السنة والشيعة.. إلخ.

إذن فالطائفية فى إسرائيل أشبه بمرض معدى يطفح صديده على العالم العربى والإسلامى، فتظهر أعراضه خارجياً وتبقى الجرثومة الأصلية فى قلب المجتمع الإسرائيلى.

ويعبر الأدب أصدق تعبير عن ذلك الصراع الطائفى الكامن؛ فها هو الكاتب الإسرائيلى، العراقى الأصل، "شمعون بلاص" يصور حال الطائفة اليهودية العراقية فى إسرائيل بقوله:

«يبدو لى أنه منذ النفى البابلى لم تواجه الطائفة اليهودية العراقية ضائقة كتلك التى تواجهها هذه الأيام.. لقد امتهنت هذه الطائفة العتيقة، وتشتت فى هذه البؤر المسماة بـ"المعابر" (إدريس ١٩٩٦).

ويقول "سامى ميخائيل" وهو أديب من أصل عراقى أيضاً فى روايته "متساوون ومتساوون أكثر":

«لقد كان هناك (فى العراق) شيئاً آخر، ونحن هنا طائفة أخرى ساد علينا جوييم، وهنا يحكمنا يهود كالجوييم»^(١) (إدريس ١٩٩٦).

ويقول نفس الكاتب، فى موضع آخر من نفس الرواية:

«لقد عشنا فى بلد (إسرائيل) يحكمه عنصر متعال من الاشكناز» (إدريس ١٩٩٦)

ويقول "سامى ميخائيل: فى موضع ثالث على لسان بطل روايته:

«نحن الآن نرتدى جميعاً نفس الملابس (فى الجيش الإسرائيلى) ويعفر أجسامنا نفس التراب، وكبار القادة وصغار الجنود، البيض والسود، وهناك قوة عليا تحت بصورة خفية ذلك الخط الفاصل بيننا.. لكنهم يضللونى.. لم أخرج لهذه الحرب كيهودى وكإسرائيلى، وإنما كسفارادى (أسود).. وإذا عدت منها حياً سأعود إلى وضعى السابق، حيث محفور على جبهتى أصلى ولون جلدى وعلامة طائفتى» (إدريس ١٩٩٦)

ومن الفقرة الأخيرة نلمح بوضوح أن حالة الحرب مع العرب هى الحالة الوحيدة التى تتوارى فيها الصراعات الطائفية مؤقتاً، وهذا يوضح إلى أى مدى يحتاج الإسرائيليون استمرار الصراع مع العرب والمسلمين دفعاً لخطر الطائفية الكامن فى الجسد الإسرائيلى.

^(١) الجوييم صيغة جمع للفظـة "جرى" العبرية التى تعنى الجيفة ويطلقها اليهود على الكافر والغريب وكل من هو

غير يهودى (فراج ١٩٩٩)

١٠- العنصرية (Racism)

العنصرية هي اتجاه سلبي تعصبي تميز من جانب الفرد، ويعبر عن موقف يتخذه صاحبه إزاء فكرة أو رأى أو جماعة دون أن يكون هناك تبرير منطقي أو سند واقعي. فهو موقف سلبي لا تسنده حجة أو تجربة ولا يؤيده منطق، بل تدعمه وتؤكداه صفات شخصية أو نزعات مرضية. والنتيجة لكل ذلك هو إفساد عملية الإدراك، ومن ثم اضطراب عملية الحكم والتقرير. والعنصرية فى معناها الخاص موقف سلبي مضاد للأقليات فى مجتمع من المجتمعات، ومساء كانت أقلية دينية أم سياسية، أم لونية، أم عرقية. والعنصرية موقف يعبر عن خلل واضطراب فى شخصية صاحبه، فالمشاعر العدوانية المكبوتة هى التى تقوم بالدور الحاسم فى تحديد موقف الفرد المتعصب وذلك من خلال عملية نقل المشاعر السلبية وتحولها وإسقاطها على آخرين. ولذلك فالعنصرى فى الغالب شخصية عدوانية وتسلطية (قنديل ١٩٩٣).

واليهود هم أول من وضع بلور العنصرية تاريخياً حيث اعتنقوا فكرة شعب الله المختار، واعتقدوا فى تميزهم العنصرى على بقية البشر. وقد انقلبت هذه العدوى إلى الحضارة الغربية بشكل أو بآخر، وكانت أخطر نوباتها العنصرية الألمانية الهتلرية التى أدت إلى قتل ٤٥ مليوناً من البشر فى الحرب العالمية الثانية وفناء العديد من المدن والقرى بشكل وحشى لم يسبق له مثيل. وليس هنا مجال للربط التاريخى المفصل الدال على انتقال فكرة العنصرية من غلاة اليهودية إلى غلاة الألمان، ولكن من المفارقات العجيبة أن اليهود أصحاب الدعوى العنصرية الأصليين كانوا ضحايا لعنصرية النازى ودفعوا ثمن ذلك غالياً.

وقد انتبه العالم المتحضر لخطورة النزعات العنصرية وراح يسن القوانين للسيطرة عليها وعلت أصوات الحكماء والمصلحين السياسيين والاجتماعيين لإزالة كل أشكال التمييز العنصرى والتطهير العرقى والإبادة الجماعية، ففى أمريكا عانى السود طويلاً من التمييز العنصرى، ولكنهم الآن يحكم القوانين المحاربة للعنصرية أصبحوا يحصلون على حقوقهم كبشر متساوين مع غيرهم من البيض. وقد حدث مثل هذا فى جنوب أفريقيا حيث نجح الزنوج بقيادة نلسون مانديلا بعد كفاح مرير فى إلغاء نظام الحكم القائم على فكرة التمييز العنصرى وعلى استغلال الأقلية البيضاء للأغلبية السود.

وفى أوروبا صيغت القوانين التى تقاوم كل أشكال التمييز العنصرى على الرغم من عدم إيمان بعض الأفراد أو الجماعات بهذا الاتجاه ولكن الجميع يخضع للقانون. وعندما حاول الصرب إحياء فكرة التمييز العنصرى والتطهير العرقى

والإبادة الجماعية في البوسنة وكوسوفا، رفض الضمير العالمى هذا التوجه (على الرغم من مباركة الكثير من القوى السياسية والعسكرية الغربية لفكرة إخلاء أوروبا من التجمعات الإسلامية)، وفى النهاية، وبعد فترة تلكؤ ومماطلة هبت قوات حلف الأطلنطى بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية لوقف هذه الهجمة العنصرية ، ليس حباً فى المسلمين الضحايا، وإنما خوفاً من تنامى هذه النزعة العنصرية ووصولها إلى حد الخطر المهدد لأوروبا والعالم كما حدث فى التجربة النازية الهتلرية.

وتعاليم الأديان السماوية الصحيحة كلها تدعوا للإخاء والمساواة والتعاون والتعيش بين البشر على مختلف ألوانهم وأجناسهم. وتتضح هذه المبادئ الإنسانية الرفيعة فى التعاليم الإسلامية (الدين الخاتم الذى جمع فضائل كل الأديان) فنجد فيه : «كلكم لآدم و آدم من تراب» .. «لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى» .. «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى» .. «من عادى ذمياً فأنا خصيمه يوم القيامة» .. «الناس سواسية كأسنان المشط» .. «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» الخ.

والعنصرية كالسرطان يبدأ فى بؤرة معينة ثم ينتشر ويتكاثر حتى يهدد الكيان البشرى كله، وعلى الرغم من كل القوانين وكل التوجهات المعاصرة لمحاصرة هذا المرض الخطير إلا أنه قد بقيت بؤرة خطيرة للعنصرية صنعها اليهود فى إسرائيل وتواطأت معها قوى غربية لأهداف ومصالح مختلفة. وعلى الرغم من العنصرية الصارخة لهذا الكيان الإسرائيلى وما يحمله من خطورة لا تتوقف عند الجانب الفلسطينى أو العربى، وإنما تمتد فى يوم ما إلى العالم كله، على الرغم من كل هذا نجد أن القوى الكبرى فى العالم تغض الطرف عنها وتعمى عن مخاطرها سعياً نحو أهداف مؤقتة متناسية الذكريات الأليمة للنزعات العنصرية على مر التاريخ وكيف دفعت الإنسانية كلها ثمن سكوتها عنها وهى فى مهدها.

والآن نحاول سبر أغوار هذا الكيان العنصرى من خلال دراسة أقوال علمائهم ونصوصهم الدينية وأحوالهم التاريخية.

يقول فرويد (عالم النفس اليهودى الشهير): «إن لليهود فكرة عالية عن أنفسهم، وهم يعتقدون أنهم أنبل من غيرهم، وعلى مستوى أعلى وأكثر تقدماً من الآخرين .. وإن سبب هذا الاعتزاز أنهم يصدقون فى الواقع ما يقولونه عن أنفسهم من أنهم شعب الله المختار» (فرويد ١٩٥٥).

ويقول أيضاً:

«وفرض اليهود دوماً على أنفسهم شعوراً متجدداً بمحنة الزهد، طرخاً

للغرائز، وبذلك وصلوا على الأقل من ناحية المذهب والشرائع - إلى سواق أخلاقية ظلت بمنأى عن تناول الشعوب القديمة» (فرويد ١٩٥٥).

وهذه النزعة العنصرية المستعالية على باقى الأمم من غير اليهود "الجوييم" تجد جذورها القوية فى النصوص التوراتية المخرفة: «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون» (الآية ٧٥ من سورة البقرة)، وسوف نرى كيف لبست عنصرية اليهود وعدوانيتهم رداءً مقدسًا من نصوص توراتية أسطورية مخرفة لا يعقل أن تصدر عن إله أو نبي.

ولنبداً بتأمل السلوك الصهيونى فى فلسطين فى الوقت الحاضر -وهو واقع نشهده بأعيننا لحظة بلحظة فى كل وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية- ثم نتبع جذور هذا السلوك فى تراثهم الفكرى والدينى.

فقد ظهر التمييز العنصرى فى كل المجالات فى المجتمع الإسرائيلى بشكل فج، ومنها مجالات الإسكان على سبيل المثال - فقد ذكر إسرائيل شاحاك ، الأستاذ بالجامعة العبرية، فى كتابه (عنصرية دولة إسرائيل - ص ٥٧) أنه يوجد فى إسرائيل مدن بأكملها (كارمل، ونزارت، وإليت، وهتزرور، وأرادوميتزفين - رامن، وغيرها) يحرم القانون أن يقطنها غير اليهود (جارودى ١٩٩٦).

وقد حُرِفَ "قانون العودة" لصالح اليهود، فأى يهودى قادم من أى مكان يصبح مواطناً إسرائيلياً بمجرد ما تَطَأَ أقدامه مطار تل أبيب، أما الفلسطينى المولود فى فلسطين ومن أبوين فلسطينيين، فيجوز اعتباره عديم الجنسية (جارودى ١٩٩٦).

وهذا التطهير العرقى الذى يمارس بشكل منتظم فى دولة إسرائيل اليوم ينبع من مبدأ النقاء العرقى الذى يمنع امتزاج الدم اليهودى بأى دم دنس من دماء الآخرين (جارودى ١٩٩٦).

وفى سفر تثية الاشتراع فإن الشعب المختار (الفصل السابع، ٦) لا ينبغي له الاختلاط بالآخرين: «ولا تصاهرهم ابنتك ولا تعطها لابنه وابنته لا تأخذها لابنك» (الفصل السابع، ٣).

وهذا الفصل العنصرى هو الطريقة الوحيدة لمنع تدنيس العنصر المختار من الرب، والدين الذى يربطه به.

وظل هذا الانفصال عن الآخر هو القانون. ففى كتابه "التلمود" (كوهين ١٩٨٦) كتب الحاخام كوهين يقول: يمكن توزيع سكان المعمورة بين إسرائيل والشعوب الأخرى جمعاء. لإسرائيل هو الشعب المختار.

ولم يتقاعس عزرا ونحميا، عقب عودتهما من المنفى فى تطبيق هذا الفصل العنصرى:

فقد بكى عزرا لأن الجنس الطاهر قد اختلط بشعوب البلاد (عزرا، الفصل التاسع، ٢). وهو الذى أمر بالانتقاء الجنسى وبالتمييز العنصرى: «جميع هؤلاء اتخذوا نساء غريبات، وكان منهن من ولدن بنين» (عزرا، الفصل العاشر، ٤٤). ويقول لحميا عن اليهود:

«فطهرتهم من كل غريب» (لحميا، الفصل الثالث عشر، ٣٠)

ومرض الخوف من الاختلاط ورفض الآخر قد تجاوز البعد الجنسى، فرفض دم آخر بالزواج المختلط يعنى رفض دينه كذلك وثقافته أو طريقة حياته (جارودى ١٩٩٦): وهكذا فإن "يهودى" ينفجر غضباً فى وجه من ينحرفون عن الحقيقة، والى لا يوجد غيرها طبعاً، فسوفونيا يقاتل ويحارب كل أشكال الملابس الأجنبية، ولحميا ضد اللغات الأجنبية. «وفى تلك الأيام أيضاً رأيت يهوداً قد تزوجوا نساء أشدوديات وعمونيات وموابيات، وكان نصف كلام أولادهم بلغة أشدود، ولم يكونوا يحسنون التكلم باليهودية، بل بلسان شعب وشعب، فخاصمتهم ونعتهم، وضربت منهم رجالاً وتفت شعرهم، واستحلفتهم بالله أن لا تعطوا بناتكم لبنينهم ولا تأخذوا بناتهم لبنينكم ولا لكم» (لحميا، ١٣، ٢٣-٢٥).

وتندرج أيديولوجية "الترنسفير" أى نقل السكان فى إطار متوسط بين الإبادة الكنعانية والخوف من الاختلاط، وتساندها الآن غالبية حاخامات يهودا وسامرا. وتقوم هذه السياسة على أساس قراءة متطرفة للنصوص المقدسة، مثل الخطاب الموجه من الأحبار إلى اليهود ويستحلفونهم فيها عدم ممارسة اختلاط الأجناس (الأحبار ١٩/١٩). وأمرهم بالتمييز بين الدم الطاهر والدم الدنس (الأحبار ٢٠/٢٥)، والذى ميز بين إسرائيل والشعوب الأخرى (الأحبار ٢٠/٢٤)، وذلك من أجل ممارسة التمييز العنصرى (الخروج ١٩/٨).

وهكذا لم يتورع الحاخام الأكبر سيزوك أن يقول عام ١٩٩٣ دون رادع أو وازع من أى جهة من الجهات: «أود ألا يتزوج الشباب اليهود أبداً إلا من شابات يهوديات». وهكذا فإن إسرائيل "المقدسة" (الأحبار ٢٠/٢٦) ينبغى ألا تتدنس (عزرا ١١/٩) بالاتصال بشعوب أخرى التى مقتها الرب (الأحبار ٢٠/٢٣).

وخطورة التمييز العنصرى فى حالة إسرائيل أنه يتشعق بوشاح التقديس ويستمد جدوره من نصوص دينية يؤمن بها المتدينون منهم كنصوص إلهية، ويعتقها غير المتدينين كأيديولوجية يرون أنها حافظت وتحافظ لليهود على بقائهم على مر العصور.

وبناءً على كل المعطيات السابقة (من نصوص دينية وممارسات يومية) فقد

اعتبرت منظمة الأمم المتحدة (فى جلسة عامة فى ١٠ نوفمبر ١٩٧٥) أن الصهيونية شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصرى.

ولم يكن هذا القرار مفاجأة، فإن اليهود أنفسهم لا ينگرون هذه العنصرية، بل هى جزء أصيل ومحورى من معتقداتهم الدينية.

وقد أكد حايم كوهين، الذى كان قاضياً بالمحكمة العليا فى إسرائيل أنه: «من سخرية الأقدار المريعة أن تستخدم نفس الأطروحات البيولوجية والعنصرية التى روج لها النازى، والتى أوحى لهم بقوانين نورمبرج الشائنة، كأساس لتعريف الوضع اليهودى داخل دولة إسرائيل» (بأدى ١٩٦٠).

والواقع أن المسألة قد طرحت أثناء محاكمة مجرمى الحرب فى نورمبرج، لدى استجواب منظر الأجناس جيولوس ستريشر:

«فى ١٩٣٥ وأثناء انعقاد مؤتمر الحزب فى نورمبرج صدرت القوانين العنصرية. فهل تم است دعاؤك أثناء إعداد مشروع القانون هذا لإسداء المشورة، وهل اشركت بأى شكل من الأشكال فى وضع هذه القوانين؟»

ورد المتهم ستريشر: «أجل أعتقد أنى شاركت فى ذلك، وأننى منذ سنوات وأنا أكتب أنه ينبغى فى المستقبل منع أى اختلاط للدم الألمانى بالدم اليهودى. وكررت دائماً أنا ينبغى أن نأخذ الجنس اليهودى، الشعب اليهودى، كنموذج. وأعبت فى مقالاتى أن اليهود يجب اعتبارهم كنموذج للأجناس الأخرى، لأنهم يتبعون قانوناً عنصرياً، هم نون موسى، الذى يقول: إذا ذهبت إلى بلد أجنبى، ينبغى لك ألا تأخذ امرأة أجنبية. وهذا أيها السادة على درجة كبيرة من الأهمية للحكم على قوانين نورمبرج، فهى قوانين يهودية أخذت كنموذج. فهى أصل الحفاظ على الهوية اليهودية التى عاشت طوال عدة قرون فى حين أن الأجناس الأخرى والحضارات الأخرى قد اندثرت» (المصدر: محاكمة كبار مجرمى الحرب أمام المحكمة العسكرية الدولية - نورمبرج ١٤ نوفمبر ١٩٤٥ - أكتوبر ١٩٤٦).

ومن هنا يتضح أن العنصرية النازية الألمانية التى كلفت البشرية ٤٥ مليوناً من القتلى قد استقت جذورها من العنصرية اليهودية وأخذتها كنموذج. وهذه العنصرية، نموذج كل أنواع العنصرية الأخرى، هى أيولوجية تستخدم لتبرير هيمنة الشعوب المختلفة.

وقد كان هذا النموذج العنصرى أيضاً أمام المستعمرين الأمريكان وهم يبيدون الهنود الحمر أصحاب الأرض الأصليين، فقد كانت أمامهم صورة يشوع، القائد اليهودى وهو ينكل بأعدائه ويبيدهم:

الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها فى خزانة الرب. واستحيا يشوع راحاب الزانية وبيت أبيها وكل ما لها ومكنت فى وسط إسرائيل إلى هذا اليوم، لأنها خبات المرسلين اللذين أرسلهما يشوع لكى يتجسسا على أريحا.. وكان الرب مع يشوع وكان خبره فى جميع الأرض» (سفر يشوع فصل ٦).

وأرسل يشوع ثلاثة آلاف رجل إلى "عائ" لبييدوها ولكن أهل "عائ" هزموهم وقتلوا منهم ستة وثلاثين رجلاً.

«فقال الرب ليشوع: لا تخف ولا ترتعب. خذ معك جميع رجال الحرب، وقم اصعد إلى عائ. انظر قد دفعت بيدك ملك عائ وشعبه ومدينته وأرضه، فتفعل بعائ وملكها كما فعلت بأريحا وملكها. غير أن غنيمتها وبهائمها تنهبونها لنفوسكم.. ودخلوا المدينة وأخذوها، وأسرعوا وأحرقوا المدينة بالنار. فالتفت رجال عائ إلى ورائهم ونظروا وإذا دخان المدينة قد صعد إلى السماء. فلم يكن لهم مكان للهرب هنا أو هناك... ولما رأى يشوع وجميع إسرائيل أن الكمين قد أخذ المدينة وأن دخان المدينة قد صعد، انثنوا وضربوا رجال عائ. وهؤلاء خرجوا من المدينة للقائهم، فكانوا فى وسط إسرائيل، هؤلاء من هنا وأولئك من هناك. وضربوهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منفلت. وأما ملك عائ فأمسكوه حيًا وتقدموا به إلى يشوع وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان عائ فى الحقل فى البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعًا بحد السيف حتى فنوا، أن جميع إسرائيل رجع إلى عائ وضربوها بحد السيف. فكان جميع الذين سقطوا فى ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفًا، جميع أهل عائ. ويشوع لم يرد يده التى مدها بالمرزاق حتى حرّم (أى قتل) جميع سكان عائ. لكن البهائم وغنيمة تلك المدينة نهبها إسرائيل لأنفسهم حسب قول الرب الذى أمر به يشوع. وأحرق يشوع عائ وجعلها تلاً أبدياً خراباً إلى هذا اليوم. وملك عائ علقه على الخشبة إلى وقت المساء، وعند غروب الشمس أمر يشوع فأنزلوا جثته عن الخشبة وطرحوها عند مدخل باب المدينة، وأقاموا عليها رُجّة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم» (سفر يشوع فصل ٨).

هل يستطيع خيال القارئ استيعاب كل هذا العنف وهذا الدمار وهذا الحرق وهذه الإبادة؟؟.. هل يستطيع تصور موت اثنا عشر ألفاً هم كل أهل عائ رجالاً ونساءً— فى يوم واحد؟؟.. هل يستطيع تصور حجم أشلائهم وهل يستطيع تصور كمية الدماء المرافقة فى هذا المكان..!؟.. وهل يستطيع تصور حجم الغضب والعدوان الكامن فى صدور من فعلوا كل هذا؟!.. وهل يستطيع أن يصدق أن كل هذه الوحشية قد تمت بأمر من الرب؟!.

«أخبر عبيدك إخباراً بما أمر به الرب إلهك موسى عبده أن يعطيكم كل الأرض، ويبعد جميع سكان الأرض من أمامكم» (سفر يشوع فصل ٩).

وأثناء اجتياح يشوع الدامي للضفة لغربية يهرب خمسة ملوك ويختبئوا فى مغارة فى موقع يسمى مَقِيدَة.

«فقال يشوع افتحوا فم المغارة وأخرجوا إلى هؤلاء الخمسة الملوك من المغارة. ففعلوا كذلك وأخرجوا إليه أولئك الملوك الخمسة من المغارة: ملك أورشليم، وملك حبرون، وملك يرموت، وملك خيش، وملك عجلون. وكان لما أخرجوا أولئك الملوك إلى يشوع أن يشوع دعا كل رجال إسرائيل، وقال لقواد رجال الحرب الذين ساروا معه: تقدموا وضعوا أرجلكم على أعناق هؤلاء الملوك، فتقدموا ووضعوا أرجلهم على أعناقهم. فقال لهم يشوع: لا تخافوا ولا ترتعبوا. تشددوا وتشجعوا. لأنه هكذا يفعل الرب بجميع أعدائكم الذين تحاربونهم. وضربهم يشوع بعد ذلك وقتلهم وعلقهم على خمس خشب، وبقوا معلقين على الخشب حتى المساء... وأخذ يشوع مقيدة فى ذلك اليوم وضربها بحد السيف، وحرقت ملكها (أى قتله) هو وكل نفس بها. فلم يبق شاردًا. وفعل بملك مقيدة كما فعل بملك أريحا» (سفر يشوع فصل ١٠).

نلاحظ فى النص السابق الرغبة الشديدة فى القتل وإلا كان بإمكانه أسر الملوك الخمسة، وليس فقط القتل بل الصلب على الخشب. ويعيد يشوع على شعبه الأمر الذى الذى جاءه من الرب: تشددوا وتشجعوا، وكأنه خشى أن يخالف قلوبهم بعض الشفقة أو الرحمة بالأعداء، فاستنفر فيهم مزيدًا من العدوان الذى سيحتاجونه فى مزيد من الإبادة كما سنرى فى النص التالى:

«ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل إسرائيل معه إلى لبنه وحارب لبنه. فدفعها الرب هى أيضًا بيد إسرائيل مع ملكها، فضربها بحد السيف كل نفس بها. فلم يبق بها شاردًا، وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا. ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لبنة إلى خيش ونزل عليها وحاربها. فدفع الرب خيش بيد إسرائيل فأخذها فى اليوم الثانى وضربها بحد السيف وكل نفس بها حسب كل ما فعله بلبنة. حينئذ صعد هورام ملك جازر لإعانة خيش، وضربه يشوع مع شعبه حتى لم يبق شاردًا. ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من خيش إلى عجلون فنزلوا عليها وحاربوها، وأخذوها فى ذلك اليوم وضربوها بحد السيف، وحرّم (أى قتل) كل نفس بها فى ذلك اليوم حسب كل ما فعل بلخيش. ثم صعد يشوع وجميع إسرائيل معه من عجلون إلى حبرون وحاربوها، وأخذوها وضربوها بحد السيف مع ملكها وكل مدنها وكل نفس بها. فلم يبق شاردًا حسب ما فعل بعجلون، فحرّمها وكل نفس بها. ثم رجع يشوع وكل إسرائيل معه إلى دبر وحاربها، وأخذها مع ملكها وكل مدنها، وضربوها بحد

الهجانه فى فلسطين عام ١٩٤٨ وبعدها، وأيضاً القتل الجماعى للأسرى المصريين فى صحراء سيناء، فكانهم ينفذون نصوصاً دينية ويتقربون إلى الرب بهذا الفعل. ومن شارون إلى الحاخام مائير كاهانا، فذاك تجسيد للطريقة التى سببها الصهاينة حيال الفلسطينيين. ألم تكن مسيرة يشوع هى مسيرة مناحم بيجن عندما قضى فى ٩ أبريل عام ١٩٤٨ على سكان دير ياسين، من الرجال والنساء والأطفال البالغ عددهم ٢٥٤ نسمة، وقتلهم هو وجنود "الأرجون" لكى يفر العرب العزل مدعورين (مناحم بيجن: العصيان، تاريخ الأرجون ١٩٧٨ ص ٢٠٠). (ومن المفارقات المضحكة المبكية أن يحصل مناحم بيجن على جائزة نوبل للسلام بعد ذلك.. ١١١).

والم يكن طريق يشوع هى التى أشار إليها موسى ديان: «فإذا كنا نمتلك التوراة، وإذا كنا نعتبر أنفسنا شعب التوراة، فينبغى لنا أن نمتلك كذلك أرض التوراة» (جبروزايم بوست، ١٠ أغسطس ١٩٧٧).

والم يكن طريق يشوع هو الطريق الذى وضعه يورام بن بورات فى الجريدة الإسرائيلية الكبرى أديعوت أحرونوت، الصادرة فى ١٤ يولييه ١٩٧٢: «لا صهيونية واستعمار للدولة اليهودية بدون إبعاد العرب وطردهم والاستيلاء على أراضيتهم»

أما وسائل وأساليب هذا الاستيلاء على الأرض فقد حددها رابين عندما كان جنراً على الأراضى المحتلة: تكسير عظام ملقى الحجارة من أطفال الانتفاضة. فماذا كان رد فعل المدارس التلمودية فى إسرائيل؟ تسليم السلطة إلى أحد المسئولين المباشرين عن مذبح صبرا وشاتيلا وهو الجنرال رفائيل إيتان الذى نادى "بزيادة تحصين المستوطنات القائمة".

وبنفس هذا اليقين، الدافع الدكتور باروخ جولدشتين، وهو مستوطن (مستعمر) من أصل أمريكى، من قرية أربة (الضفة الغربية) وقتل أكثر من سبعة وعشرين فلسطينياً وجرح أكثر من خمسين، وهم يصلون فى الحرم الإبراهيمى. كان باروخ عضواً فى جماعة متطرفة تأسست برعاية أرييل شارون (أى تحت حماية من قاد مذابح صبرا وشاتيلا والذى كوفى على جريمته بتعيينه وزيراً للإسكان ومكلفاً بتنمية المستوطنات فى الأراضى المحتلة)، وهو (جولدشتين) الآن موضع تهجيل المتطرفين الذى يأتون إلى قبره بالزهور وينحنون لتقبيله، فهو الأمين على تقاليد يشوع الرامية إلى القضاء على كل شعوب كنعان (فلسطين) من أجل الاستيلاء على أراضيتهم (جارودى ١٩٩٦).

١١ - التعصب

التعصب فى العربية يعنى التحيز والتحامل، من العصبة بمعنى أهل الرجل وعشيرته، والمتعصب (Prejudiced) هو شديد التحيز والتحامل. والتعصب فى اللغات الأجنبية يعنى الحكم المسبق Prejudice الذى لا يستند إلى واقع موضوعى أو منطق سليم، ويكون لدى المرء بحكم وجوده بين من ينتمى إليهم، وينتقل منهم إليه، فيكره أو يحب من تنسحب عليه الفكرة التعصبية أو الحكم التحيز أو ما يتصل به من أشياء أو موضوعات دون سابق معرفة أو تجربة، ومن ثم فالتعصب هو بالنفس أو اتجاه نفسى، وهو أظهر فى مجال العلاقات الاجتماعية، ويشتهر منه ما نطلق عليه أحياناً اسم التعصب الأجناسى Racial Prejudice، يكون لجنس ضد جنس، أو نطلق عليه أحياناً أخرى اسم التعصب العرقى Ethnic Prejudice.

ويعتبر التعصب من مباحث علم النفس الاجتماعى ويدرس فيه ضمن الدراسات على الاتجاهات النفسية الاجتماعية، وهو لهذا له بعدان، واحد اجتماعى وآخر نفسانى. فأما الاجتماعى فهو أن تكون للتعصب أسبابه الاجتماعية، كأن تكون لجماعة من الناس تجارب بجماعة أخرى، ربما كانت تجارب تاريخية تروى عنها الكتب وخاصة الكتب الدينية كما فى التوراة عن الشعوب غير بنى إسرائيل، حيث يتحزب التوراه لليهود ويجعلهم شعباً أرقى من غيرهم، فيرين فى التفكير الجمعى لهم أنهم "الشعب المختار" وأن غيرهم يعتبرون الجويم أو العامة أو الأميين كما يرد فى القرآن (الحفنى ١٩٩٥).

وبعبارة أخرى يمكن القول بأن التعصب اتجاه نفسى لدى الفرد يجعله يدرك فرداً معيناً أو جماعة معينة أو موضوعاً معيناً إدراكاً إيجابياً محباً أو سلبياً كارهاً دون أن يكون لذلك ما يبرره من المنطق أو الشواهد التجريبية، ولذا فإن الحاجة المنطقية والخبرات الواقعية لا ينجحان عادة فى إزالة التعصب أو الشفاء منه، ومن هنا فالتعصب يقاوم التغيير والتعديل (طه ١٩٩٣).

ولابد أن يكون التعصب كسلوك مجزئاً لصاحبه سواء كان فرداً أو جماعة، بمعنى أن يكون له مردود من المكاسب، وقد تكون المكاسب نفسية، وربما اجتماعية، وفى كثير من الأحيان تكون المكاسب مادية أو اقتصادية. والتعصب يجعل فى مقدرة المتعصب أو المتعصبين الذين لهم السيطرة والسيادة فى مجتمعاتهم أن يميزوا أنفسهم فيها، وأن يفرزوا غيرهم بحيث يستبقونهم تابعين لهم وخاضعين لسيطرتهم وسيادتهم، وبذلك يستمر استغلالهم لهم واستخدامهم كعبيد وأرقاء (الحفنى ١٩٩٥). وهذا هو الوضع القائم فى فلسطين حيث يقوم اليهود بالسيطرة على المنافذ البرية والبحرية

والجزية ويمسكون بكل مفاتيح الاقتصاد ويسيطرون بالكامل على لقمة العيش بالنسبة للشعب الفلسطيني ويمارسون نحوه كل أنواع التعصب والتمييز العنصرى. ومن مكاسب التعصب أن المتعصب يجعل المتعصب ضده احتياطيًا اجتماعيًا له ينسب إليه كل المفاسد ويرجع بسببه كل المصائب (الحفنى ١٩٩٥). وقد رأينا فى التفاضة الأقصى (عام ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) كيف كانت الدبابات الإسرائيلية والرشاشات الإسرائيلية تحصد أرواح الفلسطينيين ومنازلهم، وفى نفس الوقت يتهمون الفلسطينيين بالعنف والإرهاب مجرد أنهم وقفوا بصدورهم العارية يصدون العدوان عن أنفسهم وعن مزارع الزيتون التى هى مصدر رزقهم الوحيد فى تلك الظروف.

والتعصب يبنى تعصبه على أسباب خاصة به هو، ولكنها فى النظرة الموضوعية لا تعدو كونها أغاليط Falacies، ومن هنا يصبح التعصب مبنياً على تشوهات معرفية تؤدى إلى تشوهات وجدالية وبالتالي تشوهات سلوكية. لذلك فالتعصب يعتبر اضطراباً نفسياً اجتماعياً، يصل فى خطورته كمرض إلى مستوى "البارانويا" ويؤدى إلى كوارث إنسانية عديدة لمسناها فى الحربين العالميتين (نتيجة اعتقاد الألمان فى تفوقهم وتميزهم) وللمسه حالياً فى الصراع العربى الإسرائيلى نتيجة السلوكيات العنصرية المتعصبة لليهود ضد الفلسطينيين، بل ضد العرب جميعاً. ويمكن اعتبار عقيدة "شعب الله المختار" و "الشعب الأرقى" ضلالات (Delusions) تصيب المجتمع الإسرائيلى بمعنى أنها معتقدات خاطئة لا تقوم على دليل، ويصعب تغييرها بالإقناع أو النقاش.

والمجتمع المتعصب ينشئ أفراداً على التطرف فى انتمائهم لمجتمعهم الداخلى من ناحية، وعلى العداوة الشديدة للمجتمعات الأخرى. وتتعاون الأسرة مع المدرسة مع وسائل الإعلام طول الوقت على بث بذور التعصب فى نفوس النشء حتى إذا كبروا كانوا أشبه بمخازن عدوان قابلة للانفجار فى أية لحظة. ويبدو هذا واضحاً فى سلوك المستوطنين (المستعمرين) اليهود فى فلسطين حيث يتميز سلوكهم بعدوانية وحشية نحو كل ما هو فلسطينى أو عربى، وذلك نتيجة تكوينهم العدوانى الشخصى بالإضافة إلى عمليات الشحن الانفعالى المستمرة. وقد دأبت بعض الجمعيات اليهودية التى تشرف على تربية الأطفال اللقطاء من اليهود على أن تغرس فيهم منذ الصغر فكرة أن العرب هم الذين قتلوا آباءهم، فيكبر هؤلاء الأطفال وفى داخلهم شعور وحشى نحو كل عربى. وهذه الشخصيات التى تربت على الكراهية والعدوان والتعصب تجدد نفسها مدعنة لاتجاهات جماعتها لأنها تجد فيها متنفساً لمشاعر الكراهية والعدوان المكبوتة.

ويذهب علماء النفس إلى رد بعض أسباب التعصب إلى مشاعر نقص فى المتعصب تجعله يغالى فى الانتساب لقيم ومعايير جماعته ليقوى بها، ويجد متنفساً يصرف مشاعر النقص عنده على أفراد الأقلية. وكثيراً ما نجد المتعصبين فى جماعاتهم أفراداً يتميزون بضيق الأفق وضحالة التفكير وسطحية المعرفة وضآلة الشأن. وقد تسبب هذه الأمور إحباطاً للشخص يفجر فيه طاقات عدوانية قد يستسهل تصريفها اجتماعياً فيما تنصرف فيه عدوانية أفراد جماعته وهو التعصب ضد الأقلية، وبذلك يحقق لنفسه تصريف عدوانيته ويكون هذا التصريف اجتماعياً يستشعر به أنه منتم لجماعته ولا يجد تثيراً عليه من ثم فيما يقوم به من أذى أو ضرر يقع منه على الأقلية (طه ١٩٩٥).

وقد وجدنا فى فترات استرخاء الصراع بين العرب وإسرائيل فى حقبة مفاوضات السلام أن الصراعات الداخلية فى المجتمع الإسرائيلى تنشط بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين، حيث يشعر الشرقيون أنهم مضطهدون من الغربيين، وأن الآخرين ينظرون إليهم باستعلاء واحتقار، وتبرز أيضاً الصراعات بين المتطرفين الدينيين وبين العلمانيين، أو بين حزبي الليكود والعمل.. وهكذا. ولكن حين يتجدد الصراع مع العرب مرة أخرى تجدهم يسارعون بتكوين حكومة طوارئ ائتلافية مكونة من العدوين اللدودين الليكود والعمل لمواجهة الخطر العربى المشترك (فى زعمهم).

ويأخذ التعصب أشكالاً عدة، منها أن يكون باللسان لغة وتعبيراً، وأن يكون باعتزال من يقع عليهم التعصب، والتعالى عليهم وتحقيرهم وحرمانهم اجتماعياً ووظيفياً، والاعتداء عليهم فى أبدانهم وأملاكهم، وقد يتوجه إلى إبادةهم. والنكات البذيئة المحقرة للأقلية مثل من أمثلة التعصب باللغة، ومن الممكن أن تلاحظ النكات إذا لم تقترن باعتزال المتعصب لهم، واعتزالهم قد يعنى رفض إشراكهم فى السكن فى الحى أو البناية أو الفندق، وتأبى أنواع من التعليم عليهم، وقد لا ينالون نفس النوع من الرعاية الصحية. ويعتبر الاعتداء أو الإبادة من السلوكيات المشهورة عند المتعصبين، ومن ذلك الاغتيالات، والغارات الأجناسية كالتى يقوم بها اليهود على أحياء العرب فى فلسطين المحتلة، ومن ذلك أيضاً مختلف صنوف المعاملة المميّزة التى من شأنها أن تدفع الأقلية المضطهدة إلى الهرب بنفسها من جحيم التعصب، كما يحدث الآن فى فلسطين (الحفنى ١٩٩٥).

ومن الصور الصارخة للتعصب بناء المستوطنات (المستعمرات) كجزر منفصلة تماماً يسكنها اليهود وسط المناطق الفلسطينية، وتعتبر نقاط التماس خطوط

مواجهة ساخنة بين الطرفين، ولا يحدث امتزاج أبدًا بين المجتمعين. وهذا الوضع السكاني المتعصب يعتبر قنابل موقوته قابلة للانفجار في كل لحظة.

ومن الممكن تصنيف التعصب من جهة أخرى بحسب الصور النمطية المعممة عن التعصب عليهم. وهذه الصور المعممة Stereotypes لها شكلان: الشكل الأول هو صور للجماعة الأخرى باعتبار أفرادها من الكفار الملعونين المستوجبين للتعذيب في الدنيا والآخرة والمستحقين للقتل باعتبارهم كفارًا، أو باعتبار أنهم نجس، لاختلاف طقوسهم وعاداتهم وتقاليدهم، وفي ذلك تروى الحكايات عن قذارتهم وإجرامهم وحقارتهم، تبريرًا لاعتزائهم والامتناع عن التعامل معهم. والشكل الآخر هو أن يقال أنهم جنس أخطأ عقليًا ونفسيًا، تبريرًا لاستبعادهم عن السلطة والمناصب الفكرية (الحفنى ١٩٩٥).

ولقد ثبت أن هناك أنماطًا من الشخصية المتعصبة أطلق عليها اسم الشخصية المتمركزة حول العرق Ethnocentric Personality تجدد المتنفس عن أوجه النقص فيها بالمغالاة في الانتماء لجماعتها والانقياد لقيادتها وإظهار العداء الشديد لأعدائها. العالم عندها إما أقوياء أو ضعفاء، وهي تكره الضعف لأنه فيها هي نفسها، ولكنها تسقطه على الآخرين وتتطرف في الإساءة للضعفاء والمستضعفين والأقليات (الحفنى ١٩٩٥). ولذلك فإنه من المفيد أن يكون الآخر قويًا أمام هذه النماذج المرضية حتى تتوقف عمليات الإسقاط وتتوقف التوجهات العدوانية، وهذا ما حدث بالفعل في التعامل مع الكيان الصهيوني، حيث ثبت من الأحداث أنه كان يخش حين يواجه بالقوة التي تردعه (كما حدث في حرب السادس من أكتوبر العاشر من رمضان، وكما حدث في جنوب لبنان)، وعلى العكس كان يستأمد ويتوحش حين يستشعر الضعف والتسليم من أعدائه (كما حدث إبان محادثات السلام مع الفلسطينيين).

وإن تشوه إدراك التعصب يجعله غير قادر على تقدير احتياجات الآخرين ومشاعرهم فهو لا يتخيل أن لهم حقوق أو احتياجات أو مشاعر مثل كل البشر لذلك تكون توجهاته نحوهم شديدة العنف والقهر والسحق.

٢١- طريق يشوع: خريزة العدوان والإبادة

إن علماء النفس (والتحليليين منهم على وجه الخصوص) يقرون بأن غريزة العدوان هي أحد الغرائز الأساسية في النفس البشرية، ولكن الإنسان يتعلم كيف يهذب هذه الغريزة ويتسامى بها لكي لا تدمره ولا تدمر غيره، ولكي يسخرها في خدمة أهداف الحياة. أما إذا زادت هذه الغريزة وطفئت وخرجت من عقالها فإنها تصبح حالة مرضية تدمر صاحبها وتدمر من حوله وتصبح خطراً على الحياة.

والتأمل للسلوك الصهيوني يلمح بسهولة أن غريزة العدوان تبدو طاغية إلى حد التدمير والإبادة فهذا الكيان الصهيوني يملك حتى الآن على الأقل مائتي رأس نووية يهدد بها من حوله، ويحرص على امتلاك كل أنواع الأسلحة المتقدمة ليتفوق بها على جيرانه، وهو يعيش طول الوقت بمنطق القوة والسيطرة، ويمارس الاستعمار (المسمى خطأ بالاستيطان)، ويبعد القرى ويحاول تغيير الجغرافيا وتحريف التاريخ.

والسلوك العدواني الصهيوني يجرح الضمير الإنساني كل يوم على شاشات التلفزيون، فقد رأينا الطفل محمد الدره وهو يقتل في حضن أبيه لحظة بلحظة برصاص الجنود الإسرائيليين، وهم يتلذذون بمنظر الرعب على وجه الطفل وأبيه لمدة ساعة أو أكثر ولا يستريحون إلا حين يلفظ الطفل أنفاسه الأخيرة ويسقط في حجر أبيه واضعاً يده الصغيرة فوق وجهه وكأنه لم يعد يحتمل رؤية كل هذا الرعب الوحشي من هؤلاء الجنود.

ويتكرر هذا السلوك حين يقف مجموعة من الجنود الإسرائيليين ويطلقون الرصاص على عامل نظافة فلسطيني حتى تنقطع رجله اليمنى بفعل غزارة الرصاص وهو يصرخ حاملاً رجله المقطوعة، ثم يمضي هؤلاء الجنود (الوحوش) في طريقهم وكأنهم لم يفعلوا شيئاً يستحق الاهتمام.

ويتكرر المشهد حين يقتلون طفلاً عمره سنة ونصف وهو في حضن أمه، وتبلغ الوحشية قمتها بقتل الرضیعة "إيمان حجو" ذات الأربعة شهور بقذيفة اخترقت بطنها وأخرجت أحشاءها.

ويتكرر مرة أخرى حين يقتل أحد المستوطنين طفلاً فلسطينياً في العاشرة من عمره، وهذه المرة لم يرحمه ويقتله برصاصة وإنما دهسه بقدميه حتى مات، والغريب أن المحكمة حكمت على هذا المستوطن (المستعمر) بستة شهور ليس سجنًا وإنما "خدمة عامة".

ويقفز إلى الوعي العربي قصة القتل الجماعي للأسرى المصريين في سيناء بلا

رحمة، وقصة إبادة القرى الفلسطينية، والقصف اليومي للقرى والمدن اللبنانية، ومذبحة قانا، وإبادة المدنيين اللبنانيين الذين ذهبوا ليحتموا بقوة الأمم المتحدة وبالحنادق، ومذبحة أطفال مدرسة بحر البقر، ودير ياسين، وصابرا وشاتيلا وغيرها كثير كثير.

هذا السلوك العدواني وهذا القتل الجماعي وهذه الإبادة الوحشية المستمرة ضد أطفال الانتفاضة حتى هذه اللحظة لا تكاد نجد فى أحداث الصراع ما يبررها.. فماذا يا ترى يكون الدافع إليها؟

لا يمكننا فهم التركيبة النفسية لليهود، وفهم السياسة العدوانية للمشروع الصهيونى الإسرائيلى دون العودة إلى المرجعية الأساسية الكامنة وراء هذا السلوك، فمن خلال هذه المرجعية -فقط- نستطيع قراءة الماضى وفهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل.

وبما أننا لسنا بصدد استقراء دينى وتاريخى لليهود والصهيونية، وإنما نحن بصدد استقراء للتركيبة النفسية هؤلاء الناس، فإننا نكتفى بنقل نصوص قليلة من التوراة وخاصة من سفر يشوع الذى يشكل إلى حد كبير السلوك السياسى والعسكرى للمشروع الصهيونى.

ويشوع، وهو خادم موسى وخليفته، وهو البطل اليهودى الذى نفذ المشروع اليهودى على أرض الواقع:

«وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلاً: موسى عبدى قد مات. فالآن قم واعبر هذا الأردن أنت وكل الشعب إلى الأرض التى أنا معطيها لكم -أى لبنى إسرائيل-. كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته، كما كلمت موسى. من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات، جميع أرض الحثيين، وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم. لا يقف إنسان فى وجهك كل أيام حياتك.. تشدد وتشجع، لأنك أنت تقسم هذا الشعب الأرض التى حلفت لآبائهم أن أعطيهم. إنما كن متشدداً، وتشجع جداً لكى تحفظ للعمل حسب كل الشريعة التى أمرك بها موسى عبدى. لا تمل عنها عينا ولا شمالاً لكى تفلح حيثما تذهب. لا يرح سفر هذه الشريعة من فمك، بل تلهج فيه نهاراً وليلاً، لكى تحفظ للعمل حسب كل ما هو مكتوب فيه.. أما أمرتك؟ تشدد وتشجع! لا ترهب ولا ترتعب لأن الرب إلهك معك حيثما تذهب» (سفر يشوع، فصل ١) وواضح أن هذه الأحداث المذكورة فى هذا النص قد حدثت بعد وفاة موسى، ولا ندرى كيف كلم الرب يشوع بن نون، هل كلمه فى الحلم، أم أوحى

إليه فى اليقظة، وكيف يوحى إليه فى اليقظة ولم يثبت بدليل أنه نبي أو رسول ١٢ كل هذه تساؤلات تضعنا أمام قضية هامة، وهى أن هذا النص لم يرد على لسان موسى النبي، وإنما ورد على لسان شخص عادى يعتبره اليهود بطلا شعبياً وهو يشوع وعلى الرغم من ذلك نجد أن اليهود يقدسون هذا النص ويتبعون طريقه كما سوف نرى. ولو عرفنا أن نصوص التوراة قد كتبت بعد وفاة موسى بمئات السنين وانتقلت عبر هذه السنين مشافهة فلنا أن نتساءل عن دقة النقل وتأثره بالظروف الإنسانية والتاريخية. وواضح من النص أن الرب يأمر يشوع بأن يتشدد ويتشجع وقد كرر هذا الأمر ثلاث مرات (وربما يفسر لنا هذا تشدد المفاوض الإسرائيلي المعاصر وتشجعه على المطالبة بما ليس له).

«فارسل يشوع بن نون من شطيم رجلين جاسوسين سرا، قائلاً: اذهبا انظرا الأرض وأريحا. فذهبا ودخلا بيت امرأة زانية اسمها راحاب واضطجعا هناك». (سفر يشوع ، فصل ٢)

نلاحظ فى هذا النص أن رسولا يشوع اختارا من بين كل الأماكن بيت امرأة زانية، وقد تكرر هذا الاختيار أيضاً فى قصة شمشون حين نزل غزوة فاختر أن يبيت عند امرأة زانية، فيا ترى ما سر هذا الإصرار على اختيار بيوت الزانيات كى ينزل فيها أبطال اليهود ١٢... وهل هذا الاختيار التاريخي القديم يفسر لنا استعانة اليهود بنساء الليل والغانيات فى أنشطتهم الاستخبارية (مونيكا أيضاً كانت فتاة يهودية سلطتها أحد الجماعات لتغوى كليبتون رئيس أكبر دولة). وقد حدث التعاون بين المرأة الزانية وجواسيس يشوع، حين دخل يشوع مدينة أريحا أبادها عن آخرها، ولم يبق فيها إلا الزانية وأسرتها...!! والسبب ليس فقط أن هذه الزانية خبأت الجاسوسين وإنما نبأتهما بنبوءة هامة نقلها إلى يشوع بعد ذلك:

«وأما هما فقبل أن يضطجعا، صعدت إليهما إلى السطح وقالت للرجلين: علمت أن الرب قد أعطاكم الأرض، وأن رعبكم قد وقع علينا، وأن جميع سكان الأرض ذابوا من أجلكم» (سفر يشوع، فصل ٢)

وهكذا تأتى النبوءات إلى يشوع على لسان زانية فيتحرك استجابة لها: «فبكر يشوع فى الغد وارتحلوا من شطيم وأتوا إلى الأردن هو وكل بنى إسرائيل» (سفر يشوع فصل ٢)

ثم دخل يشوع أريحا ومارس بأمر الرب - كل ما سنراه فى النص التالى: «وحرّموا (أى قتلوا) كل ما فى المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحذ السيف... وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها، إنما

«إن مستوطنى أمريكا من البروتستانت الأطهار كانوا فى سبيل الاستيلاء على أراضى اليهود ومطاردتهم، وهم يتذرعون بيشوع، و"عمليات الإبادة المقدسة" للعمالقة والفلسطينيين» (نلسون ١٩٦٧).

وعلى الرغم من ثبوت صفة العنصرية بالوثائق الدينية المقدسة (لديهم)، والوثائق التاريخية، والممارسات اليومية، فقد تمكن اللوى الصهيونى فى الولايات المتحدة الأمريكية من استخدام النفوذ الأمريكى، الذى انفرد بالسيطرة على الأمم المتحدة (بعد الهيار الاتحاد السوفيتى)، لكى تصدر قراراً فى ١٦ ديسمبر ١٩٩١ يالغاء القرار العادل الصادر فى سنة ١٩٧٥ وذلك بهدف محو صفة العنصرية عن الصهيونية، مع أن الحقائق تثبت أن عنصرية إسرائيل كانت فى ازدياد مع الوقت وأن عمليات التمييز العنصرى والتطهير العرقى والإبادة الجماعية البطيئة كانت مستمرة ومتزايدة نحو الشعب الفلسطينى بشكل لم يسبق له مثيل، وتوسع اليهود فى بناء المستعمرات (المسماة خطأ وخداغاً بالمستوطنات) وعزلها عن الفلسطينيين، واعتبار الفلسطينيين والعرب والمسلمين جميعاً أجناساً أدنى لا تستحق إلا الدمار والإبادة.

ولابد أن ينتبه العالم كله -وليس العرب وحدهم أو المسلمين وحدهم أو المسيحيين وحدهم - إلى خطورة العنصرية الصهيونية المسلحة نووياً وكيميائياً والتي ترتدى ثوب القداسة، وتتجذر بالنصوص الدينية. ففى سفر العدد (الفصل الحادى والثلاثون، ٧-١٨) حديث عن مآثر بنى إسرائيل الذين هزموا المدينين «فقاتلوا مدين كما أمر الرب موسى وقتلوا كل ذكر» «وسبى بنو إسرائيل نساء مدين» «وجميع مدنها مع مساكنهم وقصورهم أحرقوها بالنار». وعندما عادوا إلى موسى: «فسخط موسى على وكلاء الجيش وقال لهم موسى: هل استبقيتم الإناث كلهن؟، فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت مضاجعة رجل اقتلوها، وأما إناث الأطفال اللواتى لم يعرفن مضاجعة الرجال فاستبقوهن لكم» (١٤-١٨)

إلى هذا الحد الرهيب يصل السلوك العدوانى لدى اليهود تجاه من يخالفونهم، والأخطر أنهم ينسبون هذا السلوك إلى تعليمات موسى، على الرغم من أن النصوص الدينية التى وردت فى القرآن قد برأت موسى من كل هذا الهراء، فليس من المقبول أن يمارس شخص عادى كل هذا العدوان الوحشى، فكيف يقوم به نبى كريم جاء رحمة للناس وهداية لهم.

ولننظر كيف مارس اليهود تحريف النصوص لخدمة نواياهم العدوانية، وإصباغ صفة القداسة على أشد السلوكيات وحشية وعنصرية. والمثال الصارخ الذى سنتناوله يصور سلوك يشوع، خليفة موسى، أثناء غزوه لكنعان (فلسطين)،

حيث يمارس بوحشية سياسة التطهير العرقي والإبادة الجماعية. ولست أذكر أننى قرأت فى حياتى نصاً دينياً أو دنيوياً امتلاً بكل معانى العدوان والكراهية والإبادة كمثّل هذا النص الذى يصور "الإبادة المقدسة" التى وقعت فى الضفة الغربية. ولنا أن نتخيل خطورة الشعب التى يعتقد فى مثل هذه النصوص المتفجرة حقداً وكراهية وعنصرية وعدواناً، ليس فقط على شعب فلسطين، وإنما على كل البشر من غير اليهود، وإننى أدعو القارئ أن يحاول، أثناء قراءة النص، إحصاء كلمات السيف والقتل فيه ليعرف التركيبة النفسية لهذا الشعب:

«وفتح يشوع فى ذلك اليوم مقيدة وضربها بحد السيف وأبسل ملكها وكل الأنفس التى فيها لم يبق باقياً فصنع بملك مقيدة كما صنع بملك أريحا. ثم اجتاز يشوع وجميع إسرائيل معه من مقيدة إلى لبنه وحاربها، فأسلمها الرب أيضاً إلى أيدي إسرائيل هى وملكها فضربوها بحد السيف وقتلوا كل نفس فيها فلم يبقوا فيها باقياً وفعلوا بملكها كما فعلوا بملك أريحا. وجاز يشوع وجميع إسرائيل معه من لبنه إلى لاختيش ونزل عليها وحاربها فأسلم الرب لاختيش إلى أيدي إسرائيل فافتحوها فى اليوم الثانى وضربوها بحد السيف وقتلوا كل نفس فيها كما فعلوا بلبنه. حينئذ صعد هوارم ملك جازر لنصرة لاختيش فضربه يشوع هو وقومه حتى لم يبق منهم باقياً. واجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لاختيش إلى عجلون ونزلوا عليها وحاربوها وافتحوها فى ذلك اليوم فضربوها بحد السيف وأبسل كل نفس فيها فى ذلك اليوم عينه كما فعل بلاختيش. وصعد يشوع وجميع إسرائيل، معه من عجلون إلى صبرون وحاربوها» (سفر يشوع، الفصل العاشر، ٣٤ - ٣٨).

ويتساءل جارودى (جارودى ١٩٩٦):

لماذا لا يحدو -والحال هذه- أى يهودى متدين ومتطرف (أى متمسك بالقراءة الحرفية للتوراة) حدو هذه الشخصيات الجلييلة المتمثلة فى موسى ويشوع؟ وألم يذكر سفر العدد، وعندما بدأ غزو فلسطين (كنعان): «فسمع الرب صوت إسرائيل ودفع إليهم الكنعانيين فأبسلوهم ومدهتهم» (العدد ١، الحادى والعشرون، ٣).

ويكرر سفر تثنية الاشتراع: «وإذا أدخلك الرب، إلهك، الأرض التى أنت صائر إليها لزلتها واستأصل أما كثيرة.. فأبسلهم إبسالاً (الفصل السابع ١-٢)» «فلا يقف أحد بين يديك حتى تفنيهم» (الفصل السابع، ٢٤).

وهذا هو المصير الذى ينتظر العرب فى فلسطين وحوها إذا لم ينتهوا إلى هذه التركيبة النفسية المريضة، وربما يفسر عمليات القتل الجماعى التى مارستها عصابات

السيف وحرّموا كل نفس بها. لم يُبق شاردًا، كما فعل بحIRON كذلك فعل بدبير ملكها، وكما فعل بلبنة وملكها. فضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها. لم يُبق شاردًا، بل حرم كل نسمة كما أمر الرب إله إسرائيل. فضربهم يشوع من قادش برّنيع إلى غزة وجميع أرض جوشن إلى جبعون. وأخذ يشوع جميع أولئك الملوك وأرضهم دفعة واحدة. لأن الرب إله إسرائيل حارب عن إسرائيل ثم رجع يشوع وجميع إسرائيل معه إلى الخِله إلى الجللجال» (سفر يشوع فصل ١٠).

هذا هو طريق يشوع الكامن في وعى إسرائيل يبحث عن الفرصة للخروج إلى حيز التنفيذ، وربما لا يحتمل بعض المتطرفين التأجيل فتري ذلك المستوطن الذي يقتل الطفل الفلسطيني بأن يدهس رقبتة وكأنه يتذكر أمر يشوع لرجاله بأن يدوسوا رقاب ملوك فلسطين حتى الموت، وهذا المتطرف الذي يحرق منزلاً أو مسجدًا يستدعى بذلك إحراق مدن فلسطين على أهلها بواسطة يشوع ورجاله وهم يفعلون ذلك بأمر الرب، لذلك فقتل الفلسطينيين عبادة لديهم وإحراق مدنهم إحياء لسنة توراتية، والإبادة الجماعية التي لا تترك شاردًا أو نسمة هي استجابة لروح يشوع، وأن التشدد في المفاوضات هو تنفيذ لأمر الرب ليشوع بأن يتشدد.

فأى مصير يواجه الفلسطينيون، بل يواجه العالم كله من هذه التركيبة النفسية التي بنيت على أساطير تخطت عدوانيتها كل الحدود التي عرفها البشر قديمًا وحديثًا. وإذا لم يكن هذا السلوك العدواني الجماعي الذي يسحق الحياة مرضًا، فماذا يكون المرض إذن؟!

وحين نقرأ هذه النصوص التوراتية التي تكرس العدوان والإبادة تقفز إلى خاطرنّا في الحال نصوصًا قرآنية مضيئة تحدد العلاقة مع الآخر في وقت الحرب في إطار من العدل والانضباط، وتضع سياجًا أمام السلوك حتى لا يتفجر العدوان بغير ضابط. يقول تعالى مخاطبًا المؤمنين: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة ١٩٠)

فقصر القتال هنا على دفع العدوان القادم من الآخر ومنع البدء بالاعتداء. وفي نص قرآني آخر دعوة مفتوحة إلى السلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة ٢٠٨). ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال ٦١).

١٣- الإرهاب

ونظرًا للركيزة النفسية للشخصية الصهيونية والتي تتسم بالعنصرية والتعصب والعدوان والميل للاشتباك والصراع، فإن هذه الشخصية الخائفة والمتوجسة والمفتقدة للأمان تبالغ كثيرًا في إظهار قوتها وبطشها كلما واتها الفرصة لذلك بهدف بث الرعب في قلوب الآخرين إلى أقصى درجة ممكنة. والأمثلة من التاريخ القديم والحديث لا حصر لها، ولكننا نأخذ من القديم مثالاً صارخاً وهو سلوك يشوع عند اجتياحه هو والإسرائيليين لممالك الضفة الغربية، حيث كان يدخل المدينة فيقتل كل من فيها بما في ذلك النساء والشيوخ والأطفال والحيوانات، ويحرق المدينة فلا يترك فيها شيئاً، ثم ينتقل إلى غيرها فيفعل بها ما فعل بسابقتها. وهذا السلوك مثبت في التوراة في سفر يشوع لمن يريد الاطلاع على تفاصيله المرعبة. ولا نكاد نجد في التاريخ البشري ميلاً للإبادة الكاملة والإرهاب الشديد بهذه الكثافة كما ورد في سفر يشوع، ولم تكن هناك ضرورة عسكرية لهذه الإبادة المطلقة لكل شئ حي في المدن التي يحتلونها، ولكن الضرورة هنا كانت نفسية بهدف بث الرعب ليس فقط في قلوب المعاصرين لتلك الأحداث وإنما في قلوب اللاحقين من البشر الذين يقرأون سفر يشوع ويصدقون رواياته الأسطورية.

وبما أننا لا نقصد هنا رصدًا تاريخيًا، وإنما رصدًا نفسيًا فإننا سنقفز فوق المراحل التاريخية التي تؤكد هذا المسلك النفسي الإرهابي لنصل إلى الحاضر كي نرصد هذا السلوك من خلال بعض النماذج للسلوك الإرهابي الصهيوني مثالاً في أعمال قادتهم المعاصرين:

- لقد تم إلقاء القبض على إسحاق شامير من طرف السلطات البريطانية في ديسمبر ١٩٤١ بتهمة "الإرهاب والتعاون مع العدو النازي". ومثل هذا الماضي لم يمنع إسحاق شامير من أن يصبح رئيس وزراء إسرائيل (جارودي ١٩٩٦).
- ومناحم بيغن قاد عصابات الهاجاناة في عمليات إبادة جماعية للقرى الفلسطينية كان أشهرها مذبحة دير ياسين، ولم يمنعه هذا التاريخ الإرهابي من أن يصبح رئيساً لوزراء إسرائيل أيضاً، بل ربما تكون هذه الأعمال الوحشية هي جواز المرور للمناصب العليا في إسرائيل.

ولقد صرح بن جوريون نفسه: «أن بيغن ينتمي دون شك إلى النمط الهتلري، فهو عنصري على استعداد لإبادة كل العرب لتحقيق حلمه بتوحيد إسرائيل، وهو مستعد لإنجاز هذا الهدف المقدس، باستخدام كل الوسائل» (هابر ١٩٧٩).

• وفي عام ١٩٤٠، ولإثارة السخط على الإنجليز الذين كانوا قد قرروا إنقاذ اليهود المهددين من هتلر، وذلك باستضافتهم في جزيرة موريشيس، فإن الباخرة التي كانت تنقلهم وهي ناقلة البضائع الفرنسية "باتريا"، وعند توقفها في ميناء حيفا يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٤٠، لم يتردد الزعماء الصهاينة من جماعة الهاجاناة (وكان رئيسهم بن جوريون) في تفجيرها، مما أدى إلى وفاة ٢٥٢ يهوديًا وأفراد طاقم الباخرة الإنجليز (هترزل ١٩٥٨).

• وفي العراق كانت الطائفة اليهودية (١١٠٠٠٠ شخص في ١٩٤٨) متأصلة في البلاد تمامًا. وأعلن حاخام العراق الأكبر خدوري ساسون: «لقد تمتع اليهود والعرب بنفس الحقوق والامتيازات منذ ألف سنة ولم يعتبروا أنفسهم عناصر غريبة أو منفصلة عن هذا البلد». ثم بدأت التصرفات الإرهابية الإسرائيلية في ١٩٥٠ في بغداد. وأمام إحجام اليهود العراقيين وترددهم في تسجيل أنفسهم على قوائم الهجرة إلى إسرائيل، لم تتردد الأجهزة السرية الإسرائيلية ومن أجل إقناعهم بأنهم في خطر، بإلقاء القنابل عليهم.. وقتل الهجوم على معبد "شيم توف" ثلاثة أشخاص وجرح العشرات.. وهكذا بدأ الخروج الجماعي المسمى "عملية على بابا" (أديعوت أحرونوت، ٨ نوفمبر ١٩٧٧).

• وكلما ذكر اسم شيمون بيريز (وهو من المحسوبين على حثام حزب العمل) نتذكر مذبحه قانا التي قتل فيها ما يقرب من مائة أغلبهم من النساء والأطفال في جنوب لبنان راحوا يحتمون بقوات الأمم المتحدة لحفظ السلام فحصدتهم القنابل والصواريخ في مشهد لم يتحمله ضمير العالم وقتها وهو يشاهد الأب الذي يحمل أشلاء طفله على يديه وقد قتل جميع أبنائه في هذه الغارة الوحشية، والتي لم يكن لها مبرر إلا التخويف والترويع.

• وشارون صاحب السجل الحافل في صابرا وشاتيلا وغيرها، وسجله ملئ بالقتل والتعذيب والإبادة، وقد كان هذا السجل جواز مروره ليصبح رئيسًا لوزراء إسرائيل.

• وباراك قام بعمليات اغتيال للقيادات الفلسطينية في لبنان وهو يتخفى في ثوب امرأة، وكانت هذه العمليات وغيرها جواز مروره لرئاسة وزراء إسرائيل. وقد تعامل مع انتفاضة الأقصى بمنتهى القسوة والوحشية، وقد أدى هذا إلى وصف هذا السلوك من جانب المراقبين الدوليين بأنه "إفراط في استخدام القوة من جانب إسرائيل"، وفي الحقيقة إن هذا التعبير يحاول تلطيف الموقف، ولكن التسمية الحقيقية هي "ممارسة أقصى درجات العنف لإرهاب الفلسطينيين" وقد شاهدنا قمة

هذا الإرهاب فى قتل الطفل محمد الدرد على مدى ٤٥ دقيقة وهو فى أحضان أبيه، ولو كان القتل وحده هو الهدف لما استغرق تحقيق هذا الهدف دقيقة واحدة تنطلق فيها رصاصة فتصيب هذا الطفل الصغير: وإنما استمرار إطلاق الرصاص على مدى ٤٥ دقيقة ليؤدى إلى الموت البطى لهذا الطفل أمام أعين أبيه يهدف أساساً إلى بث أقصى درجات الرعب والإرهاب الذى هو أحد سمات الشخصية الصهيونية.

وإسرائيل فى سلوكها العام لا تتصرف كدولة تحترم القوانين والمواثيق الدولية، فهى دائماً وأبداً لا تنفذ قرارات الأمم المتحدة، وتخرج على الإجماع الدول فلا توقع على اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية، ولا تتورع عن استخدام الاغتيال كوسيلة للتخلص من مناويها، ولا تتورع عن مهاجمة الدول المجاورة واحتلال أراضيها (مصر وسوريا والأردن ولبنان بالإضافة لفلسطين). والأغرب من ذلك أن إسرائيل ليس لديها دستور كأي دولة فى العالم، وليس لديها حدود معروفة، ولذلك يصعب عملياً تسميتها دولة، والأصح إطلاق كلمة "الكيان الإسرائيلى" أو "الكيان الصهيونى"، حيث أنها لا تمتلك مقومات الدولة فى العرف الدولى.

وعلى الرغم من ضلوع الكيان الصهيونى فى السلوك الإرهابى فإنه يقوم بعملية إسقاط لهذا السلوك على أعدائه من الفلسطينيين والعرب والمسلمين بشكل عام، فقد دأبت وسائل الإعلام التى تدور فى فلك الصهيونية إلى إلصاق تهمة الإرهاب بالعرب والمسلمين فى كل مكان فى العالم، وللأسف الشديد انحرفت بعض وسائل الإعلام العربية والإسلامية فى هذا التيار وراحت تردد نفس مفردات وسائل الإعلام الصهيونية، ونسبت أن الكيان الإرهابى الأكبر قابع هناك حيث الكيان الصهيونى، وأن أى سلوك عنيف يصدر من هنا أو هناك ما هو إلا رد فعل للبويرة الإرهابية الصهيونية.

١٤- صورة البطل (شمشون)

لكل شعب تصوره الخاص للبطولة، وهذا التصور يوضح إلى حد كبير القيم الأخلاقية ومعالم البطولة لدى هذا الشعب. وإذا أخذنا الشعب اليهودي كمثال لنرى نموذج البطولة لديه فيمكننا أن نعرف قيم هذا الشعب ومعالم البطولة كما يتصورها. ومن بين أبطال اليهود نأخذ نموذجاً وردت قصته في التوراة بتفاصيل دقيقة، وذاع الحديث عنه في الأدب والفن، لدرجة أنه أصبح معروفاً لعامة الناس. هذا النموذج هو شمشون. ولنبدأ باستعراض بعض جوانب قصته كما وردت في سفر القضاة بالكتاب المقدس (المصدر: الكتاب المقدس الإصدار الثالث ٢٠٠١ - الطبعة الأولى - دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط):

«وكان رجل من صُرْعَة من عشيرة الدانيّين اسمه مَنُوج وامراته عاقر لم تلد. فترأى ملاك الرب للمرأة وقال لها: ها أنت عاقر لم تلدى، ولكنك تحلين وتلدن ابناً.. ولا يغفل موسى رأسه، لأن الصبي يكون لذيلاً لله من البطن، وهو يبدأ يخلص إسرائيل من يد الفلسطينيين» (القضاة فصل ١٣)

وكبر شمشون ووصل إلى سن الزواج وتحكى التوراة قصة زواجه: «ونزل شمشون إلى يَمَنَة، ورأى امرأة فى ثَمَنَة من بنات الفلسطينيين. فصعد وأخبر أباه وأمه وقال: قد رأيت امرأة فى ثَمَنَة من بنات الفلسطينيين، فالآن خذها لى امرأة. فقال له أبوه وأمه: أليس فى بنات إختوك وفى كل شعبى امرأة حتى أنك ذاهب لتأخذ امرأة من الفلسطينيين الغلف؟

فقال شمشون لأبيه: إياها خذ لى لأنها حسنت لى عيني. ولم يعلم أبوه وأمه أن ذلك من الرب، لأنه كان يطلب علة على الفلسطينيين». (سفر القضاة فصل ١٤).

ويظهر من النص السابق عنصرية أبى شمشون وأمه تجاه الفلسطينيين.

وبدلاً من أن يكون الزواج صلة للرحم بين شعبين لمجد فى النص التوراتى أن غاية هذا الزواج كانت الانتقام البشع من الفلسطينيين. فقد حدث خلاف بين شمشون ووالد زوجته، ولنرى كيف تعامل شمشون (البطل اليهودى) مع هذا الخلاف:

«فقال لهم شمشون: إنى برىء الآن من الفلسطينيين إذا عملت بهم شراً. وذهب شمشون وأمسك ثلاث مئة ابن آوى، وأخذ مشاعل وجعل ذَبّاً إلى ذَنب، ووضع مَشْعَلاً بين كل ذَنبَيْن فى الوسط، ثم أضرَم المشاعل ناراً وأطلقها بين زروع الفلسطينيين، فأحرق الأكداس والزروع وكروم الزيتون. فقال الفلسطينيون: من فعل هذا؟ فقالوا: شمشون صِهْرُ التَّمْنَى، لأنه أخذ امراته وأعطاهما لصاحبه. فصعد

الفلسطينيون وأحرقوها وأبأها بالنار. فقال لهم شمشون: ولو فعلتم هذا فلأني أنتقم منكم، وبعد أكف. وضربهم ساقاً على فخذٍ ضرباً عظيماً... ولما جاء إلى لُحَى، صاح الفلسطينيون للقائه. فحل عليه روح الرب... ووجد لُحَى حمار طرياً، فمَدَّ يده وأخذه وضرب به ألف رجل" (سفر قضاة فصل ١٥).

ولنتأمل رغبة الانتقام الشديدة داخل هذه النفس حيث يتعامل مع الخلاف مع أصهاره بأن يطلق ثلاث مئة ثعلب مربوط في ذيوها مشاعل من نار لتحرق مخازن وزروع وكروم الفلسطينيين (وهكذا يفعل اليهود الآن حين يهدمون المنازل باللودرات ويجرفون أراضي الفلسطينيين ويبيدون أشجار العنب والزيتون، ويجرقون المسجد الأقصى وكأنما هم يتبعون نموذج شمشون في التعامل مع الفلسطينيين). وعلى الرغم من استدراك الفلسطينيين خطأ صهر شمشون وخطأ زوجته (فصعد الفلسطينيون وأحرقوها وأبأها بالنار)، إلا أن شمشون لم يكف عن عدوانه بل واصل انتقامه بأن قتل ألف رجل من الفلسطينيين بعظمة حمار (وكل ذلك يحدث بمباركة من الرب ١١).

ثم يمارس شمشون حياة البلطجة والفساد كما يتضح من النص التالي:

«ثم ذهب شمشون إلى غزة، ورأى هناك امرأة زانية فدخل إليها. فقبل للغزَّيين: قد أتى شمشون إلى هنا؟ فأحاطوا به وكمنوا له الليل كله عند باب المدينة. فهدأوا الليل كله قائلين: عند ضوء الصبح نقتله. فاضطجع شمشون إلى نصف الليل وأخذ مصراعى باب المدينة والقائمين وقلعهما مع العارضة، ووضعها على كتفيه وصعد بها إلى رأس الجبل الذى مقابل حبرون» (سفر القضاة- فصل ١٦).

ثم تزوج شمشون ذليلة ومارس معها كل أنواع الكذب والتحايل، وفعلت هى أيضاً معه مثل هذا إلى أن اكتشفت أن سر قوته فى شعره فحلقت له شعره ففارقته قوته وفارقه الرب، وسجنه الفلسطينيون، ولكن شمشون ينهى حياته بهدم السجن على نفسه وعلى الفلسطينيين فى عملية انتحارية أسطورية يصورها النص التوراتى كالتالى:

«فدعا شمشون الرب وقال: يا سيدى الرب. اذكرنى وشددنى يا الله هذه المرة فقط، فانتقم نقمة واحدة عن عَيْنَيَّ من الفلسطينيين. وقبض شمشون على العمودين المتوسطين اللذين كان البيت قائماً عليهما، واستند عليهما الواحد بيمينه والآخر بيساره. وقال شمشون: لثمت نفسى مع الفلسطينيين. وانحنى بقوة فسقط البيت على الأقطاب وعلى كل الشعب الذى فيه، فكان الموتى الذى أماتهم فى موته أكثر من الذين أماتهم فى حياته» (سفر القضاة، فصل ١٦).

وهكذا عاش شمشون (بطل إسرائيل) للانتقام من الفلسطينيين بقتلهم في حياته ولحظة مماته.

ولم يتوقف النموذج الشمشوني في البطولة لدى الإسرائيليين فقد مارسوه عام ١٩٤٨ حين كانوا يبيدون القرى الفلسطينية، ومارسه مناجيم بيغن رئيس وزراء إسرائيل الأسبق حين أباد هو وجنود "الأرجون" قرية دير ياسين بكل سكانها (٢٥٤ نسمة) في ٩ أبريل ١٩٤٨ لكي يفر العرب العزل مذعورين.

والمودج الشمشوني كان أيضاً وراء حرق المسجد الأقصى حين الدفع أحد المتطرفين من اليهود وأشعل النار في المسجد.

والمودج الشمشوني تجسد في باروخ جولدشتين وهو مستوطن من أصل أمريكي فأمسك برشاش وقتل أكثر من سبعة وعشرين فلسطينياً وجرح أكثر من خمسين، وهم يصلون في الحرم الإبراهيمي، وكان باروخ عضواً في جماعة متطرفة أسسها ارييل شارون.

والمودج الشمشوني كان أمام ارييل شارون وهو ينفذ مذبحه صابراً وشاتيلاً.

فالمتطرفون اليهود يمارسون الإبادة والحرق والقتل بهذا الشكل الجماعي البشع وهم مرتاحو الضمير لأنهم ينفذون الوصايا التوراتية ويحققون نماذج البطولة فيها بالانتقام من الفلسطينيين، وكل ذلك يفعلونه بأمر الرب...!! ومباركة من الرب...!!

١٥ - التحريف

هناك الكثير من الأدلة التاريخية والنصوص الدينية التي تتحدث عن هذا السلوك لدى اليهود وهو التحريف. ولكننا سنعطى اهتمامًا خاصًا بشهادة أحد علماء النفس اليهود وهو عالم النفس الشهير فرويد لكى يحلل لنا هذه الظاهرة النفسية لدى اليهود.

يقول فرويد:

«وليس بوسع أى مؤرخ أن ينظر إلى القصة التي ترونها التوراة عن موسى والخروج، أكثر من أنها أسطورة دينية، قلبت إحدى الروايات البعيدة لمصلحة اتجاهاتها، ولسنا نعرف ما الذى كانت عليه الرواية الأصلية. أما ما كانت عليه الاتجاهات التي أعملت الانحراف في الرواية، فهذا ما نحب أن نخمنه، ولكننا نستبقى في الظلام بحكم جهلنا للأحداث التاريخية» (فرويد ١٩٥٥).

ويكمل فرويد:

«إن الشعب اليهودي تخلى عن ديانة موسى بعد وقت معين، ولا نستطيع أن نقول ما إذا كان قد فعل ذلك كلية أو أنه استبقى بعضًا من أفكارها. وفي تقبل الافتراض الذى يقول بأنه خلال الفترة الطويلة من القتال من أجل أرض كنعان والنضالات مع الشعوب المستقرة هناك، لم تختلف ديانة يهوه كثيرًا عن عبادة البعليم الآخر، ونقف على أرض تاريخية، برغم كل المحاولات المفرضة اللاحقة لإخفاء هذا الوضع الزائف للأمور، فديانة موسى رغم ذلك لم تفن، وعاش نوع من ذكرائها مخفيًا ومشوهًا، ولكنه عاش ربما بتأييد أفراد من طبقة الكهنة من خلال النصوص القديمة» (فرويد ١٩٥٥).

ولازال فرويد يقف متأملًا ومتشككًا في الروايات الدينية التي وضعها

اليهود بعد موت موسى بمئات السنين فيقول:

«كان لابد من مرور وقت طويل قبل أن يطور المؤرخون الحقيقة الموضوعية كهدف أمثل. ولقد شكلوا في أول الأمر رواياتهم طبقًا لحاجاتهم وميولهم التي كانت اللحظة تفرضها، بضمير مستريح، كما لو كانوا لم يفهموا بعد معنى التزييف. ونتيجة لذلك بدا اختلاف يتطور بين النسخة المكتوبة والرواية الشفهية - أى التراث - لنفس الموضوع. وما طمس أو غير في النسخة المكتوبة كان من الممكن جدًا أن يحفظ دون إتلاف في التراث. وكان التراث هو التنمية وهو في نفس الوقت النقيض للتاريخ المكتوب» (فرويد ١٩٥٥).

وفرويد في كل ما سبق يؤكد نور التغيرات في التراث اليهودي وهو ما

أكده القرآن في أكثر من آية من آياته، وهذه التغيرات الدائمة هي التي طمست معالم اليهودية.

يقول تعالى:

﴿لَوِيلَ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا لَوِيلَ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوِيلَ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة ٧٩).

ويقول تعالى: ﴿وَأَتَّظَمْعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٧٥).

وكان الدافع النفسى وراء تحريف التراث الدينى اليهودى هو المكاسب الحاضرة حيث وضعوا النصوص التى تخدم المصالح الدالية لهم، وقد أتاح لهم هذه الفرصة مرور حوالى ألف سنة بعد موت موسى عليه السلام، حيث بدأوا فى كتابة التوراة فى هذا الوقت الحاضر فغيروا وبدلوا حسب أهوائهم ومصالحهم فبدت التناقضات وبدت النصوص الأسطورية واضحة فى كثير من المواضع. وهذا بالطبع لا ينطبق على كل نصوص التوراة، فالتأمل فيها يجد أن هناك نصوصاً تتفق مع الأحداث الثابتة تاريخياً وتتفق مع بعض الروايات التى جاءت فى الكتب الدينية اللاحقة.

وقد جاء المسيح ليصحح هذا التحريف وهذا التزييف، واصطدم ذلك بمصالح اليهود وتوجهاتهم، وظل المسيح يبلغ تعاليمه الإنسانية السمحة للناس بعيداً عن عنصرية اليهود وتعصبهم، لذلك تأمر اليهود وحاولوا قتله. ولم يكتفوا بذلك بل عمدوا إلى التراث الدينى المسيحى محاولين تغييره وتبديله بما يتفق مع أساطيرهم ومصالحهم وأهوائهم.

وبعد ذلك جاء الإسلام دعوة ربانية لكل البشر دون تمييز ودون تفرقة تقوم على اللون أو الجنس، ولذلك اصطدم به اليهود وحاولوا وقف مسيرته فلم يستطيعوا، وأيضاً لم يكن بوسعهم تحريف آيات القرآن حيث أحيطت هذه الآيات بضمانات كثيرة تجعل من الصعب تحريفها وقد كتب القرآن فى حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وحفظه الكثير من صحابته وتوارثته الأجيال موثقاً بكافة الوسائل، ولذلك عمد اليهود إلى دس أساطيرهم ومروياتهم فى بعض كتب التفسير، وهذه المرويات هى ما تسمى بالإسرائيليات، وحاولوا أيضاً ادعاء بعض الأحاديث على أنها وردت عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن علماء التفسير وعلماء الحديث كانوا على وعى كامل بهذا الدس اليهودى واستطاعوا التعرف عليه وفصله بسهولة عن النصوص الأصلية ولاشك أن الذى يحرف النصوص الدينية ذات القداسة الربانية يكون أكثر إقداماً على تحريف غيرها من النصوص، وهذا ما حدث من تحريف لنصوص تاريخية وأدبية ولنصوص المعاهدات والمواثيق، مما يؤكد هذه الصفة المتأصلة فى الشخصية الصهيونية.

١٦ - المراوغة

هى خلق أصيل من أخلاق بنى إسرائيل يسهل رؤيته بالنظر إلى أى مرحلة تاريخية عاشوها، ومن شدة بروز هذا الخلق سميت أكبر سورة فى القرآن باسم سورة البقرة نسبة إلى قصة مراوغة اليهود لموسى حين أمرهم بذبح بقرة، ولتأمل النص القرآنى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ. قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا بَكْرَ عَوَانٍ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ* قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونَهَا. قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْعَ لُونَهَا تَسِرُ النَّاطِرِينَ* قَالُوا ادْعُوا لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ* قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقَى الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جَنَّتْ بِالْحَقِّ فَلْذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (البقرة ٦٧ - ٧٠).

وفى هذا النص القرآنى يتضح مدى المراوغة أمام أمر شديد البساطة لم يكن يستدعى كل هذا الجدل، ولكنها الرغبة الداخلية فى التفلت من تنفيذ الأمر ومحاولة إيجاد معاذير للتهرب.

وإذا قفزنا عبر التاريخ إلى السلوك الصهيونى المعاصر لوجدنا أنه من السهل التعرف على هذه الصفة وذلك بتتبع مسار المفاوضات التى تجرى مع الكيان الصهيونى وكيف أنهم يتلاعبون بالكلمات فيصنعون كلمة "أرض" مكان "الأرض" فى قرار ٢٤٢ الصادر عن الأمم المتحدة والذى يقضى بانسحاب اليهود من الأراضى العربية التى احتلوها عام ١٩٦٧، وبسبب هذا التلاعب اللفظى ظلوا يراوغون أكثر من ثلاثين سنة حول الفرق بين كلمة "أرض" و "الأرض". ونجدهم فى كل المفاوضات يشيرون قضايا فرعية وجزئية يضيعون فيها الوقت كى تبعد المفاوضات عن جوهر المشكلات المطروحة.

وربما بسبب هذا السلوك (وسلوكميات أخرى) ورد الحديث عن اليهود وبنى إسرائيل بشكل مستفيض فى القرآن، لأنه كلما استفحل المرض وتغلغل كان الإلحاح فى العلاج واستمراره مطلوبًا.

والمراوغة صفة مركزية يتفرع عنها صفات أخرى؛ مثل التلون والتقلب والتغير بحيث أنك تحار فى هذا الكيان الزبقي ولا تجد سبيلاً للتعامل معه على أى أساس ثابت.

ويتبع صفة المراوغة أيضًا صفة نقض العهود وهى صفة لازمة لهم فلم يثبت

أن اليهود التزموا عهدًا فى أى مرحلة تاريخية. والعصر الحديث يؤكد هذه الصفة بشكل شديد الوضوح، فكلما توصل الفلسطينيون إلى اتفاق أو معاهدة مع حكومة إسرائيلية جاءت نفس الحكومة أو حكومة غيرها فنبذت ذلك الاتفاق وكأنه لم يكن، وهم لا يعدمون اتخاذ الذرائع والعلل للتهرب مما التزموا به.

وخلط الحق بالباطل خلق تابع للمراوغة:

﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾
(آل عمران ٧١).

والمراوغة تسمح باللعب والمناورة حتى بالعقيدة:

﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار وكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ (آل عمران ٧٢).

﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم* وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ (آل عمران ٧٧، ٧٨).

الفصل الثالث

**انعكاسات سمات الشخصية الصهيونية
فى التعامل مع الآخر عبر العصور**

١- الشخصية الصهيونية.. والاختراق الفيروسي

من الحقائق المعروفة فى علم الأحياء أن الفيروس كائن دقيق جداً لا يرى إلا بميكروسكوب خاص نظراً لصغر حجمه. والفيروس لا يستطيع الحياة بذاته وإنما يظل كامناً وكأنه جسم صغير غير حي، حتى إذا استطاع أن يخترق جدار خلية حية فإنه ينشط ويتوجه مباشرة إلى نواة هذه الخلية فيخترقها ويغير برنامج التشغيل فيها فتنتج مواد بروتينية تلائم حياة الفيروس لكي ينمو ويتكاثر. وبما أن نواة الخلية هى مركز الحياة فيها فإن بقية أجزاء الخلية تضعف وتضمحل لحساب حياة الفيروس الدخيل. وإذا استمر هذا الوضع فإن الخلية ربما تموت بالكامل ولكن بعد أن يكون الفيروس قد استغل إمكانياتها ومخزونها لتكاثره. والاحتمال الثانى هو أن تفيق الخلية وتنتبه إلى هذا الكائن الدخيل وتبدأ فى محاصرته ومقاومته وتسرّد عافيتها مرة أخرى.

وقد انتقل هذا المفهوم من علم الحياة إلى علم الكمبيوتر حيث استخدم لفظ "الفيروس" للدلالة على برامج متخفية تتسلل إلى أقراص الكمبيوتر فتسمح ببرامج وتضيف برامج أخرى فيضطرب النظام لحساب البرامج الدخيلة.

ولو أردنا تطبيق هذا المفهوم فى علم الاجتماع فسوف نجد النموذج اليهودى أقرب مثال لهذا الاختراق الفيروسي، فاليهود فى كل مراحل التاريخ وفى كل المجتمعات كانوا يعيشون أقلية فى مناطق معزولة ولا يدوبون أبداً فى أى مجتمع، ولكنهم يتحينون الفرص حتى إذا وجدوا ثغرة أو نقطة ضعف تسللوا منها إلى مراكز التأثير الاجتماعى (السياسة، الإعلام، المال، الجنس... إلخ) وبدءوا فى تغيير البرنامج الاجتماعى لصالحهم وبذلك يسخرون كل الإمكانيات والطاقات لصالح بقائهم ونموهم وازدهارهم، وبالطبع يتم ذلك على حساب الجسد الاجتماعى الذى تم اختراقه. ويستمر هذا الوضع إلى أن تنفذ إمكانيات هذا الجسد الاجتماعى أو يتحلل فيتركه الفيروس اليهودى ويبحث عن جسد آخر يخترقه ويرمجه ويسخره. وربما يسأل سائل: ولماذا يسمح الجسد الاجتماعى بهذا الاختراق الفيروسي اليهودى إذا كان ليس فى صالحه؟.. والجواب: أن هذا الأمر ليس سهلاً فاكشف الفيروس وهو يخترق الخلية الاجتماعية يتم بشكل دقيق لا ينتبه إليه الكثير، وهو يقنع أجزاء الخلية

المخزقة بأنه جاء لمصلحتهم، وإذا لم يفلح فى ذلك يستخدم سياسة العصا والجزرة،
فإما أن تستسلم للجزرة (وهى وهمية) وإما أن تضرب بالعصا الغليظة.

وقد حدث فى بعض فترات التاريخ أن البنيان الاجتماعى اتجه لهذا
الاختراق الفيروسى اليهودى وكان هذا البنيان الاجتماعى فى حالة من الصحة
والمناعة بحيث استطاع أن يحاصر هذا الفيروس ويلفظه. وأقرب مثال لذلك اليهود
فى يثرب فقد كانوا يخرقون قبائل الأوس والخزرج ويسخرون إمكاناتهم لصالح
اليهود ويستخدمون المال والسلاح والجنس فى سبيل تحقيق ذلك. وإذا استعصى
عليهم الأمر أثاروا الفتق وأشعلوا الحروب وحركوا الضغائن، وهم فى كل الأحوال
مستفيدون. وعندما بدأ المجتمع المسلم يتكون فى المدينة بعد هجرة الرسول صلى
الله عليه وسلم وبدأت القيم الإسلامية تحدد ملامح هذا المجتمع المتماصك لم يكن
لليهود (بأخلاقياتهم الفيروسية) قدرة على اختراقه، فتمت بعض المعاهدات بين
المجتمع المسلم الفتى وبين جماعات اليهود لتنظيم العلاقة بينهما طبقاً للواقع الجديد.
ولكن طبائع اليهود (التي لم ولن تتغير) لم تتحمل ذلك فحاولوا الغدر والاختراق
والدس إلى أن تم طرد بنى قينقاع، ولم يعتبر الآخرون فاستمروا فى نفس الطريق حتى
تم طرد بنى النضير، ولم يعتبر الآخرون حتى كان الغدر الكبير من بنى قريظة وحدث
لهم ما حدث بعد غزوة الخندق ونالوا جزاءهم الذى يستحقون، وبهذا استطاع
المجتمع المسلم أن يلفظهم بعدما تأكد استحالة التعايش معهم نظراً لصفاتهم
الفيروسية الاختراقية الانتهازية العدوانية.

وهم مازالوا يمارسون هذا الأسلوب الاختراقى الفيروسى حتى هذا اليوم
وقد اكتسبوا خبرة طويلة على مدى التاريخ حين استطاعوا اختراق دولاً كبيرة
وحضارات ضخمة وتسخير كل هؤلاء لخدمة مصالح اليهود.

ولو تأملنا اختراقهم للخلية العربية فسنجد التشابه هائلاً مع الاختراق
الفيروسى الذى تحدثنا عنه من قبل، فقد كانوا قلة بالمقارنة بالمجتمع العربى الكبير،
وانتهجوا إلى قلب هذا المجتمع وتسلبوا إلى مراكز التأثير وبرمجوا العقول (أو بعض
العقول) فأفرزت مذاهب وتيارات غريبة على المجتمع العربى المسلم فظهرت البعثية
والشيوعية والاشتراكية والقومية والعلمانية، وكان هذا التغيير تمهيداً لاختراق أكبر
حين تؤتى هذه التيارات ثمارها فى إضعاف الجسد العربى وتشتيت قواه، حيث

يستطيع الفيروس اليهودى توجيه وتسخير كل إمكاناته لصالح التكاثر والنمو،
ولتغيير الخريطة بالكامل ومحو العالم العربى الإسلامى ويستبدل بخريطة وبرنامج
آخر يطلق عليه الشرق الأوسط حيث تسود مفاهيم جديدة وعلاقات جديدة وقيم
جديدة طبقاً للبرنامج الفيروسى اليهودى.

وفكرة اللوبى هى تجسيد للاختراق الفيروسى الذى يجيده اليهود الصهاينة،
وأقوى لوبى معترف به فى الولايات المتحدة هو "أيباك" (لجنة الشئون العامة
الأمريكية الإسرائيلية).

واللوبى هو مجموعة من اليهود ذوى القدرة على الرصد والملاحظة
والتخطيط والتنظيم والتوجيه، فهم يقومون بدراسة ظروف البلد الذى يعيشون فيه
ويعرفون مصادر القوة والضعف فيه، ومن ثم يعملون على توجيه قرارات وأفعال
السياسيين وأصحاب رأى، وفى نفس الوقت يعملون على تكييف الرأى العام بما
يخدم فى النهاية مصالح اليهود.

يقول بول فندلى فى كتاب " يتجرؤون على الكلام " ص ٩٢ : «إن تأثير
رئيس الوزراء الإسرائيلى على السياسة الخارجية للولايات المتحدة فى الشرق
الأوسط يفوق بكثير تأثيره فى بلده». والسبب فى ذلك أن فى الولايات المتحدة ستة
ملايين يهودى، وهم بهذا العدد يعتبرون أقلية عرقية، ولكنهم أقلية منظمة تؤثر فى
الوضع الانتخابى لرئيس الجمهورية ولأعضاء مجلس الشيوخ والكونجرس. ليس هذا
فقط ولكن وسائل الإعلام التى يتحكم فيها اليهود والشركات الكبرى والبنوك تقوم
بدعم أحد المرشحين إعلامياً ومالياً. وعن قوة اللوبى الصهيونى والصوت الانتخابى
اليهودى صرح الرئيس الأمريكى ترومان نفسه أمام مجموعة من الدبلوماسيين فى عام
١٩٤٦:

«آسف أيها السادة، ولكن على أن استجيب لمئات الآلاف من الناس الذين
ينتظرون فوز الصهيونية، وليس لدى العرب من بين ناخبى» (إيدى ١٩٥٤).
ويشهد رئيس الوزراء الأسبق كلمنت على ذلك بقوله: «إن سياسة
الولايات المتحدة فى فلسطين يشكّلها الصوت الانتخابى اليهودى، والإعانات المقدمة
من العديد من الشركات اليهودية الكبرى».

وكان اللوبى الصهيونى (ومازال) يستخدم قوة ونفوذ الولايات المتحدة
كأقوى دولة فى العالم لتحقيق مصالح اليهود، وهذا ما فعله فى حرب الخليج الثانية

حيث دفع بالولايات المتحدة لتدمير العراق. فقد قامت مجموعتان من مجموعات الضغط إلى دفع الولايات المتحدة إلى شن هذا العدوان (بيرفيت ١٩٩٠):

- ١- اللوبي اليهودي، لأن القضاء على صدام حسين سيزيل خطر أقوى بلد عربي.
- ٢- لوبي رجال الأعمال، الذي كان يعتقد أن الحرب سوف تنعش الاقتصاد الأمريكي.

والأمثلة على أن اللوبي الإسرائيلي قد نجح في فرض موقف مضاد للمصالح الأمريكية - ولكنه مفيد لسياسة إسرائيل - لا حصر لها، وهناك من الأدلة ما يشير إلى الكيفية التي جعلت مطالب الإسرائيليين تتقدم على مصالح الولايات المتحدة وهاك بعض الأمثلة:

كان رئيس لجنة الشئون الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي، السناتور فولبريت، قد قرر ممثل القادة الصهيونية الرئيسيين أمام لجنة للكشف عن أنشطتهم السرية. وأوجز نتائج تحقيقه في مقابلة أجراها مع تليفزيون C.B.S في أكتوبر ١٩٧٣ قائلاً: «إن الإسرائيليين يتحكمون في سياسة الكونجرس ومجلس الشيوخ»، وأضاف: «إن زملاءنا في مجلس الشيوخ وبنسبة ٧٠٪ منهم لا يحددون مواقفهم إلا تحت ضغط اللوبي وليس برؤيتهم الخاصة القائمة على مبادئ الحرية والقانون». وفي الانتخابات التالية فقد فولبريت مقعده في مجلس الشيوخ، ومنذ ذلك التاريخ، زاد اللوبي من سيطرته على السياسة الأمريكية. وقد وصف بول فندلي اللوبي الصهيوني وقوته فقال: «هذا الفرع الحقيقي للحكومة الإسرائيلية يتحكم فعلاً في الكونجرس ومجلس الشيوخ ورئاسة الجمهورية ووزارة الخارجية والبنجابون (وزارة الدفاع)، وكذلك في وسائل الإعلام، كما أنه يمارس نفوذه في الجامعات والكنائس» (جارودي ١٩٩٦).

وتحت ضغط اللوبي الصهيوني استخدمت الولايات المتحدة الأمريكية حق الفيتو في الأمم المتحدة أكثر من ثلاثين مرة لصالح إسرائيل لدرجة أن بعض اليهود انزعجوا من هذا الانقياد الأمريكي الأعمى ورأوا في ذلك عزلاً للولايات المتحدة وتقليلاً من مصداقيتها كوسيط وحيد في النزاع العربي الإسرائيلي (جريدة النيويورك تايمز ١٥/٥/١٩٩٥).

وكل الوسائل بالنسبة للوبي الصهيوني ملائمة وجيدة، بدءاً من الضغط

المالى وحتى الابتزاز الأخلاقى، مرورًا بمقاطعة وسائل الإعلام والناشرين، والتهديد بالقتل. وفى ذلك يقول فندلى:

«إن أى إنسان ينتقد سياسة إسرائيل، عليه أن يتوقع عمليات انتقام موجعة لا تنتهى، وحتى فقدان سبل معيشته بواسطة ضغوط اللوبى الإسرائيلى. والرئيس نفسه يخاف منه، والكولمجرس يخضع لكل مطالبه، وتحرق الجامعات على إبعاد كل ما يتعارض معه فى برامجها، وتسعسلم وسائل الإعلام كما يخضع القادة العسكريون لضغوطه» (جارودى ١٩٩٦).

وفى فرنسا يوجد لوبى قوى لمناصرة إسرائيل، ومركزه الرابطة الدولية لمناهضة العنصرية ومعاداة السامية "ليكرا"، وهذا اللوبى له تأثير ضخم على أصحاب القرار السياسى وعلى أجهزة الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية وعلى القطاعات الاقتصادية من شركات وبنوك، ويقومون بالتلاعب بالرأى العام وتوجيهه لمصلحة إسرائيل.

ونفس الشئ يحدث فى برلين وفى كثير من العواصم الأوروبية الأخرى. وقد يحلو لزعماء الصهاينة أن يبالغوا فى حجم وتأثير اللوبى الصهيونى وذلك ليشعروا الرعب فى قلوب الآخرين وليهددوا من يقف فى سبيل تحقيق أهدافهم. ورغم وعينا بهذا التهويل إلا أننا لا نستطيع أن نغفل دور وتأثير اللوبى الصهيونى المرتبط بفكرة الاخرق الفيروسى التى هى من سمات الشخصية الصهيونية على مر التاريخ.

٢ - الشخصية الصهيونية وحتمية الصراع

إن لكل شخصية على اختلاف أنماطها وسماتها مفتاحًا، إذا اهتدينا إليه أمكننا قراءة وتفسير أقوال وأفعال هذه الشخصية، وأمكننا أيضًا التنبؤ باستجابات هذه الشخصية في المواقف المستقبلية، وهذا هو الهدف الرئيسى من دراسات وتقسيمات الشخصية في علم النفس.

والشخصية الصهيونية رغم ما تتسم به من مكر ودهاء وخبث إلا أن البحث عن مفاتها ليس صعبًا، بل ربما نكتشف أنها شخصية قريبة المنال من القراءة والتفسير والتنبؤ؛ وذلك نظرًا لثبات سماتها على مدى الزمن وعدم ذوبانها في أى مجتمع بشرى آخر مهما طال اختلاطها به.

ومفتاح هذه الشخصية هو عقدة الاضطهاد، ونقصد بكلمة "عقدة" أن عقدة الاضطهاد في هذه الشخصية متغلغلة في أعماقها وليست مجرد فكرة وقتية طارئة. وبما أنها عقدة فإنها عصية على الحل وقد فشلت محاولات حلها على مدار التاريخ القديم والحديث على السواء.

فاليهود دائمًا يعيشون في مجتمعات مغلقة ولا يذوبون أبدًا في أى مجتمع مهما طال بهم الزمن فدائمًا هم أحياءهم وشوارعهم وحواريهم وفوق ذلك معتقداتهم وعنصريتهم ولا تخوض في أسباب ذلك فإن شرحه يطول. وإنما الذى يهمنا هو رصد هذه الظاهرة النفسية لدى اليهود وهى ظاهرة الشعور بالاضطهاد والخوف من الاضطهاد، فيتبع ذلك انكماش حسى لهم بأن يتجمعوا في حصون أو أحياء خاصة بهم، ثم يجدون أن ذلك غير كاف لحمايتهم فيتجهون إلى امتلاك ناصية القوة فى المجتمع الذى يعيشون فيه فيعمدون إلى مصادر الثروة ومصادر السلاح ومصادر التأثير المعنوى، ولا نحتاج إلى أدلة كثيرة على ذلك وإنما نسوق للمتشكك أدلة عصرية قائمة بأن ندعه يسأل عن أصحاب البنوك والشركات العملاقة وتجار السلاح ومالكى وكالات الأنباء والقنوات التليفزيونية والإذاعية، ولن يجد هذا المتشكك صعوبة فى رؤية العقل اليهودى والأصابع اليهودية تحرك هذه المؤسسات.

وربما يقول قائل: إن ذلك يرجع إلى أن اليهود يتمتعون بقدرات عقلية فائقة، ولكن الواقع العلمى لا يؤيد هذا الاستنتاج، فالقدرات العقلية الفطرية تكاد تكون متكافئة فى كل الأجناس وإنما تساعد الظروف على نموها وازدهارها أو العكس.

ونعود لنقول إن عقدة الاضطهاد هي التي تدفع اليهود دائماً إلى السعى الحثيث نحو امتلاك لاصية القوة والتأثير، وهذا هو نفس السبب الذي يجعلهم منبوذين مطاردين على مدى التاريخ، فهم الشعب الوحيد الذي لم يمتلك أرضاً ثابتة تحت قدميه، ولا يرجع ذلك إلى ظلم الآخرين لهم في كل العصور وإنما يرجع إلى طبيعتهم الاضطهادية المتوجسة التي تفرض أن لا بقاء لها عن طريق الامتزاج والعيش بسلام مع الآخرين وإنما يرتبط بقاؤها بالحذر وامتلاك القوة والتجمع وفي نفس الوقت تفريق الآخرين والدس بينهم ومحاولة إهلاكهم.

والتأمل للتاريخ يلمح ذكاء "نعيم بن مسعود" ذلك الرجل الذي قال له الرسول صلى الله عليه وسلم في قمة غزوة الأحزاب "خذ عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة" هذا الرجل تلمس عقدة الاضطهاد وعدم الأمان لدى يهود بنى قريظة الذين هموا بخيانة المسلمين بانضمامهم لمعسكر الأحزاب، فأيقظ فيهم هذا الرجل صفة عدم الأمان أيضاً لمعسكر الأحزاب فراحوا يطلبون منهم رهائن حتى لا يتركوهم فريسة لمحمد عليه الصلاة والسلام في حال هزيمتهم، وكانت هذه نقطة إجهاض التحالف الشيطاني. إذن فهذه شخصية اليهود، ولن يعجز أى باحث عن أن يجد آلاف الأدلة على هذه العقدة الاضطهادية. بل إنهم إن لم يضطهدهم أحد اختلقوا أساطير الاضطهاد أو ضخموا أحداث الاضطهاد التي كانوا هم السبب فيها واهرك الأول لها، والمثال على ذلك الاضطهاد النازي لهم وتضخيمهم لذلك الحدث إلى حد يقرب من الأساطير.

وعقدة الاضطهاد تعتبر بمثابة احتياج نفسى للشخصية اليهودية لأنها تضمن لها التماسك والبقاء وسط عالم يعتبرونه عدوياً على كل يهودى. وهذا الوضع بالتالى يجعل أصابع اليهود دائماً على الزناد، وتجعلهم أكثر أهل الأرض تطرفاً وعدوانية.

وقد حدث إزاحة لكل عقد اليهود بما فيها (وعلى رأسها) عقدة الاضطهاد نحو فلسطين، ولهذا يدفع الفلسطينيون ثمن العقد اليهودية المتراكمة على مر التاريخ ويعانون منها.

ونظراً لهذه التركيبة النفسية، فإن اليهود يفرضون على غيرهم الصراع ويدفعون إليه دفعاً بوعى أو بغير وعى حتى لا نكاد نذكر أنهم استطاعوا التعايش

السلمى مع المجتمع الإنسانى فى أى مرحلة من مراحل التاريخ. ولن نعدم الأمثلة التاريخية العديدة لتأكيد هذه الملاحظة ، ولكننا نلفت النظر إلى سلوكهم الحاضر تجاه عملية السلام مع الفلسطينيين والعرب ، فكلما تحققت أى خطوة على هذا الطريق يسارعون بالتخلي عنها والعودة إلى دائرة الصراع من جديد، رغم كل الجهود والتنازلات التى تقدم لهم.

٣- العدا للسامية (اللاسامية)

الساميون: نسبة إلى سام بن نوح، ويطلق على القبائل البدوية التي كانت تسكن فى فلسطين وشبه الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين والأردن. واشتهر التعبير فى التاريخ المعاصر نسبة إلى العدا للسامية، على أن تعبر العدا للسامية كان يقصد به أصلاً العدا لليهود (الحفى ١٩٧٣).

ولفظه "اللاسامية" التي شاعت بين العرب هي ترجمة غير دقيقة للكلمة الأوربية "أنتيسميتيزم" التي تعنى حرفياً "المذهب المعادى للسامية". أما من حيث المقصود الفعلى منها فهو "معاداة اليهود" أو "بذ اليهود من المجتمع" أو "مناهضة اليهود"، لأنهم الممثلون الوحيدون للجنس السامى فى أوربا، على حسب الدعوى العنصرية التي أشاعوها هم عن أنفسهم. أما الخطأ والمغالطة فى استعمالها فإنهما يأتيان غالباً من جانب اليهود. فاليهودى يعيش فى عقدة الشعور بالاضطهاد بسبب عنصريته، ويتخيل أن كل ما يجل به من مشاكل فى علاقاته بالأمم الأخرى إنما يرجع إلى أنه يهودى، يكرهونه لهذا السبب، ويحقدون عليه، ويسعون دائماً لإيذائه، لأنهم مصابون بداء "اللاسامية" ومن أجل هذا كانت تلك الكلمة أكثر رواجاً لدى اليهود منها عند غيرهم (ظا ١٩٩٠).

والغريب أن اليهود لم يراجعوا أنفسهم مرة ويسألوا : لماذا يجمع البشر على التعامل معنا بهذه الطريقة ١٢... وبدلاً من أن ينظروا فى تاريخهم وسلوكهم الذى عرضهم لهذا المعاملة من جميع الأمم فى الأرض، فإنهم يستريحون إلى إسقاط عدوانيتهم وتعصبهم على الأمم الأخرى فيبتدعون فكرة "العدا للسامية" ويصدقونها ويقنعون الآخرين بها.

ولا نكاد نجد شعباً من شعوب الأرض يحاول أن يحمى نفسه من الكراهية باستصدار قانون يمنع كارهيه من التعبير عن مشاعرهم ضده إلا الشعب اليهودى فى ظل القومية اليهودية (الصهيونية)، فبدلاً من تغيير صفاته وسلوكياته التي استدعت تلك الكراهية فى مراحل تاريخية عديدة، يلجأ إلى كبت هذه المشاعر لدى الآخرين بقوة القانون. ويمكننا القول بأن تطبيق قانون معاداة السامية هو أدعى إلى تراكم المشاعر العدائية أكثر نحو اليهود، أى أنه يحقق أثراً عكسياً لما أرادوه.

ويحاول فرويد من خلال منهج التحليل النفسى أن يفسر ظاهرة العداء للسامية، فيقول :

«لا بد طبعاً أن هناك أكثر من سبب لظاهرة بمثل هذا التركيز والقوة الدائمة كظاهرة الكراهية الشائعة لليهود. ويمكن أن نستشف سلسلة كاملة من الأسباب، وبعضها مما لا يحتاج إلى تفسير وينهض على اعتبارات واضحة، وبعضها الآخر يوجد على أعماق بعيدة، وينبثق من مصادر خفية قد نعتبرها دوافع مميزة. وأكثر هذه الأسباب كذباً فى المجموعة الأولى هو الزجر الذى يقول بأن اليهود أجانب، وهو كاذب طالما أن اليهود اليوم فى كثير من الأماكن التى يسيطر عليها العداء للسامية كانوا أقدم عناصر السكان، أو أنهم جاءوا قبل السكان الحاليين، وهذا ما حدث مثلاً فى مدينة كولون التى وفد إليها اليهود مع الرومان قبل أن تستعمرها القبائل الألمانية. وهناك أسباب أقوى من ذلك للعداء للسامية، مثلاً كون اليهود يعيشون فى الغالب كأقلية بين الشعوب الأخرى، طالما أن الإحساس بالتضامن بين الجماهير، لكى يكون إحساساً كاملاً، يحتاج إلى كراهية لأقلية خارجية، ويستثير الضعف العدى للأقلية الجماهيرية من الأغلبية إلى اضطهادها. وهناك مع ذلك خاصتان أخريان لليهود لا يمكن اغتفارهما هم، الأولى: أنهم يختلفون فى نواح كثيرة عن "مضيفهم". وهم ليسوا كذلك طالما أنهم ليسوا جنساً آسيوياً أجنبياً كما يقول أعداؤهم، ولكنهم يتكونون فى الأغلب من بقايا شعوب البحر الأبيض ويرثون ثقافتهم. ومع ذلك فهم مختلفون -ولو أن من الصعب أحياناً أن نحدد أوجه هذا الاختلاف- وخاصة اختلافهم عن الشعوب الشمالية. ولكن التعصب العنصرى يهول من أمر الاختلافات الصغيرة دون الاختلافات الجوهرية، وهو شىء نجده غريباً. والخاصية الثانية لها تأثير معترف به أكثر، ونقول إن اليهود يتحدثون الاضطهاد، بل إن أقسى أنواع الاضطهاد لم تنجح فى إبادتهم، وهم يظهرون على العكس قدرة على إدارة أعمالهم فى الحياة العملية، وحيثما تفتح أمامهم المجالات فإنهم يسهمون إسهامات لها قيمتها فى المدن التى يعيشون فيها. وتكمن جذور الدوافع العميقة للعداء للسامية فى الأزمان التى عفى عليها من قديم، وهى دوافع تنبع من اللاشعور، وإنى لمستعد لسماع أن ما سأقوله سيبدد لأول وهلة شيئاً لا يصدق العقل، وإنى لأجرؤ على أن أؤكد أن الغيرة التى استثارها اليهود لدى الشعوب الأخرى بإصرارهم على

القول بأنهم المولود المحب للإله الأب، لم تغلب عليها هذه الشعوب الأخرى، كما لو أن هذه الشعوب قد صادقت على هذه الدعوى. وأكثر من ذلك فإن اليهود أكلوا عزلتهم عن الآخرين بعادات، على رأسها عادة الختان التى كان لها انطباع منفر شديد. وربما كان تفسير هذا الانطباع أن الختان يذكر هذه الشعوب بفكرة الإخصاء المرهبة وبأشياء ترجع إلى ماضيها البدائى الذى يسرهم أن ينسوه. وهناك أخيراً أحدث الدوافع، وهو دافع التسلسل، فلا ينبغي أن ننسى أن كل الشعوب التى تتفوق الآن فى ممارسة العداء للسامية لم تصبح مسيحية إلا فى الأزمان الحديثة نسبياً، وأنها أجبرت على اعتناقها فى بعض الأحيان بحمد السيف، وربما جاز لنا أن نقول إن إيمانها جميعاً "إيمان فاسد"، وإنها تحت قشرة المسيحية الرقيقة ظلت على إشراكها الهمجى كما كانت أسلافها، ولم تغلب بعد على حقدتها على الديانة الجديدة التى فرضت عليها، وأنها أسقطت هذا الحقد على المصدر الذى أتت إليها منه المسيحية، وسهلت الحكاية التى تروىها الأناجيل عن الوقائع التى جرت أحداثها بين اليهود، والحقيقة أنها رواية لا تتحدث إلا عن اليهود، سهلت هذا الإسقاط، والنتيجة أن كراهية اليهود هى فى الصميم كراهية للمسيحية، ولا يدهشنا أن نجد أن الترابط الوثيق بين الديانتين التوحيديتين قد وجد تعبيراً عادائياً قوياً عنه لكل من الديانتين فى الثورة الاشتراكية الوطنية الألمانية (النازية)» (فرويد ١٩٥٥).

وكما نرى، فعلى الرغم من إسهاب فرويد فى تحليل أسباب العداء لليهود، فإنه للأسف، لم يستطع النفاذ إلى الصفات الأهم التى أدت لذلك العداء فى كل المراحل التاريخية مثل العنصرية والعدوانية والحقد والميل للانتقام والإبادة، وكان يكفى فرويد أن يقرأ سفر يشوع فى التوراة ليعرف سبب ذلك العداء، وأنه بدأ من اليهود أولاً ثم أسقطوه على سائر الأمم.

ولم يكن تعرض اليهود لمثل تلك الشدائد بسبب دينهم كما يزعمون، ولكنها الأطماع الاقتصادية والسياسية، والمصالح المادية التى تتخفى وراء الدين، لتكون إثارة الفتنة وإشعال نار التعصب أسهل وأسرع أثراً.

وتعرض اليهود للاضطهاد المتكرر الذى غرس فى قلوبهم ما نعلم من الحقد على أمم العالم له أسباب أعمق من أنهم يهود، ولكن اللاسامية كانت وماتزال تهمة مريحة جداً، سهلة الاستعمال، يضعون على حسابها كل أوزارهم. وليس معنى ذلك

أن اللاسامية فكرة وهمية، فهي واقع لاشك فيه، نلاحظه في تعامل أمم العالم أحياناً مع اليهود، ولكن أمم العالم ليست مجنونة بحيث تنتكر لفئة من الناس ظلمًا وعدوانًا وبغير سبب، فأسباب اللاسامية كثيرة جدًا، تعود المسئولية في معظمها إلى الشخصية اليهودية نفسها. وهذا برنار لازار الكاتب اليهودي الذي عالج الموضوع يجعل عنوان الفصل الأول من كتابه "الأسباب العامة للاسامية"، وتحت هذا العنوان يضع قائمة طويلة من الأسباب، كلها صادرة عن تطرف اليهود وتعصبهم، وخلطهم السياسة بالدين، ووضع ذلك كله تحت شعار التكتل العنصري، وما بداخل أنفسهم من كبرياء تتجلى في اعتقادهم أنهم شعب الله المختار، مما أدى إلى تفوقهم وعزلتهم، وتبرير تلك العزلة بالخوف من أن يتنجسوا بالاختلاط بالأمم الأخرى، وما ترتب على ذلك من أوضاع مادية وروحية وثقافية تجعلهم منبوذين مكروهين (ظاظا ١٩٩٠).

٤ - قتل الأنبياء والمصلحين

لقد كثر عدد الأنبياء في بنى إسرائيل، ولهذا أكثر من تفسير :

١- تفسيرهم هم، وهو أن هذا تكريم لهم أن يكون فيهم هذا العدد من الأنبياء لأنهم شعب الله المختار، وهذا تفسير يبعد عن الحقيقة حيث إن علاقتهم المضطربة بأنبيائهم تستبعد هذا.

٢- التفسير الطبى، وهو أنه كلما كثرت الأمراض كثر الأطباء اللازمين للعلاج، فالسمات المميزة لبنى إسرائيل من العناد وسرعة الارتداد عن الحق، والعنصرية والعدوان... إلخ، كانت تستدعى تواتر الأنبياء فيهم لعلاج انحرافاتهم، وهذا التفسير أقرب إلى الواقع.

٣- قتلهم للأنبياء مما يستدعى إرسال من يقوم بالإصلاح فيهم.

والتاريخ يذكر لليهود قتل الكثير من الأنبياء، بعضهم مجهول الاسم وبعضهم معروف مثل نبي الله يحيى الذى قتلوه وقدموا رأسه هدية لغاية، ومحاولتهم قتل عيسى عليه السلام وصلبه. وقد ورد فى القرآن : ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ (البقرة ٦١) ولم يتوقف الأمر عند قتل الأنبياء، وإنما امتد ليشمل أى مصلح إنسانى أو اجتماعى منهم يحاول ردهم إلى جادة الصواب، ولناخذ مثالين على ذلك :

* فى هولندا ظهر الفيلسوف اليهودى المتحرر "باروخ سبينوزا" فى القرن السابع عشر، وكان يعتقد أن نهاية الشقاء اليهودى، شقاء اليهود وشقاء العالم باليهود، تكمن فى إيمان هؤلاء الناس بالدين فقط، وتخلصهم من النعرة القومية الأسطورية التى تفسد ما بينهم وبين الإنسانية كلها. وكان يرى أن الشخصية الإسرائيلية يمكن أن تحافظ على فضائلها لو أنها لزمت شرائع الدين، دون أن تفكر فى الاتجاه نحو أرض معينة مثل فلسطين بحجة أنها أرض الآباء والأجداء. ففى يقينه أن الله لا يشترط لعبادته مكاناً جغرافياً معيناً، وأنه يقبل الصلاة ويسمع الدعاء من أى مكان على ظهر الأرض. فماذا كان جزاء هذا المصلح اليهودى من قومه ؟... أعلنت السلطات الدينية الإسرائيلية طرده من الدين، وألصقت به من التهم ما أمدّها به خيالها الخصب. ولم يحاول الرجل أن يتصدى لهذه الفوغائية فى الفكر، وانصرف إلى العلم... وإذا بالجهل يحاول إرهابه، ثم يحاول قتله، لولا أن تداركه

بعض المعجيين به من تلاميذه ومحبيه، فنصحوه بأن يترك أمستردام، ليمش في بعض الأرياف القريبة منها، حتى يتمكن هو وأصدقائه من تمهيز الإرهابيين والسفاحين والقتلة لو أن بعضهم حدثه نفسه بالهجرة إلى هذا المكان الذى اعتزل فيه (ظا ١٩٩٠).

* وكان "موسى مندلسون"، أحد الإنسانيين الكبار فى القرن الثامن عشر، وذهب هذا المصلح اليهودى إلى أن مشكلة اليهود الحقيقية تكمن فى أن شخصيتهم قد تبلورت وراء أسوار الجيتو، وأن فكرهم نفسه قد أقيمت من حوله حواجز أقوى من أسوار الجيتو، صنعوها هم بأنفسهم وتحصنوا فى داخلها، وتعودوا على ظلامها الدامس. ورأى أن الخروج من هذا الحبس الاجتماعى والفكرى لا يكون إلا باعتبار اليهودية عقيدة وديانة وأخلاقا ونمطاً فى المعيشة، لا دخل فيها للعنصرية ولا للكبرياء النابعة من الخرافات. وهو الذى رفع فى قومه الشعار المشهور "كن يهودياً فى بيتك، ومواطناً مخلصاً فى الطريق". وكان حلّه هذا فى حقيقة الأمر متسقاً مع اتجاه العالم نحو الحرية، فقد قامت الثورة الفرنسية، التى أعلنت فيها حقوق الإنسان بعد موت مندلسون بثلاث سنوات فقط. فما كان جزاؤه من قومه عن هذا الجهد المضنى ؟ ... الكذب والإفك المفترى الذى يخذل الرجل فى علمه وعقله وكرامته وعرضه وأسرته. البرت له الأقلام اليهودية المسمومة بالتعصب، فلم تترك جانباً من جوانب حياته إلا لوثته. وتعقب المعاندون من رجال الدين الإسرائيلى كتبه فجمعوها وأحرقوها، وحرّموا على قومه قراءتها إن أعيد طبعها، وجعلوا هذا التحريم مؤبداً إلى يوم القيامة، لأنهم وصموا الرجل بالزندقة أيضاً (ظا ١٩٩٠).

* ولم يكن إسحاق رابين رئيس وزراء إسرائيل مصلحاً بالمعنى المعروف للإصلاح، فقد كان صاحب سياسة تكسير عظام الفلسطينيين إبان الانتفاضة، ومع هذا فقد رأى بحسه السياسى البراجماتى أن السلام مع الفلسطينيين ومع العرب أصبح ضرورة لإسرائيل فى المرحلة الراهنة، وأنه لا جدوى من استمرار الصراع المسلح لأن إسرائيل لا تحتمل العيش تحت وطأة العداء الفلسطينى من داخلها والعداء العربى المحيط بها من كل جانب، ولذلك تبنى الرجل مفهوم الأرض مقابل السلام. ولم يكن رابين رسول سلام بالمعنى المعروف، فقد كان متشدداً فى

المفاوضات إلى أقصى درجات التشدد، وكان لا يعطى شيئاً إلا إذا أخذ في مقابله أضعافاً من حقوق الفلسطينيين، ومع هذا اعتبره المتطرفون الدينيون اليهود خائناً لتعاليم التوراة ومفرطاً في الحقوق المقدسة لليهود في فلسطين، وبناء على هذه الاتهامات قام شاب يهودى متطرف هو "إيجال عامير" بقتل إسحاق رابين كى تتوقف جهوده نحو السلام وتتوقف عملية السلام برمتها.

ويؤكد القرآن هذا السلوك فى قول جامع ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ (البقرة ٨٧).

فالدافع الأكبر وراء رفض اليهود للأبياء والمصلحين هو الكبر، فلديهم تصور نرجسى عن أنفسهم ملئ بالعنصرية والتعصب، فإذا وجدوا أن دعوة النبى أو المصلح لا تتفق مع هذا التصور -وهى بالضرورة لا يمكن أن تتفق- نجدهم يسارعون بإعلان الحرب على النبى أو المصلح بهدف إسكات الدعوة ومحو الداعية، لكى تسود تصوراتهم وأهواؤهم.

﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فيبشرهم بعذاب أليم﴾ (آل عمران ٢١).

٥ - جريمة باروخ جولدشتاين: الحدث والدلالات

شهدت على شاشة التليفزيون جنازة "جولدشتاين" ذلك الطبيب الصهيونى المتعصب ال..... الذى قاد مذبحه المسجد الإبراهيمى بالخليل فهتك حرمة رمضان وحرمة المسجد وحرمة السجود وحرمة النفس البشرية. وكان يشيع الجنازة حشد كبير من المتطرفين، وإذا وصفتهم بالتطرف فأنا لا أقول ذلك حمية (وإن كانت لدى الحمية) وإنما أقولها وصفًا علميًا وتشخيصًا نفسيًا بحكم مهنتى. لقد كانت وجوههم متشنجة، ويتحدثون بعصبية ظاهرة، وتبدو مشاعر البغضاء والعداوة فى قسمااتهم والتوتر واضح فى حركات أيديهم، وحتى لباسهم ينم عن نفوس مريضة حيث يبدو الشدوذ فى اختيارهم لقبعاتهم، فقد كان بعضها كبيرًا إلى الدرجة التى تخفى معظم وجوههم، وبعضها الآخر صغيرًا كالبقعة القذرة تغطى مؤخرة رؤوسهم وكأنها رمز للبخل اليهودى المعروف. وهم يكون ويصرخون ويتوعدون وكان المسلمون هم الذين قتلوا "جولدشتاين" وليس العكس.

وكل من يتابع ردود أفعال القطاعات المختلفة فى المجتمع الإسرائيلى يلمح بسهولة أنهم جميعًا اتفقوا على أن "جولدشتاين" قام بعمل بطولى، وفى هذا دلالة بالغة على العمق النفسى لهذا المجتمع شديد التطرف والتعصب. ولا يخفى من هذا الاستنتاج بعض التصريحات الرسمية التى تحاول امتصاص موجات الغضب التى اجتاحت ضمائر العقلاء فى كل مكان نظرًا لبشاعة الجريمة.

وهناك لحظة أخرى شديدة الدلالة على التركيبة النفسية للمجتمع اليهودى، وهى أن "جولدشتاين" هذا طبيبًا، والمعروف أن فئة الأطباء فى أى مجتمع هى أقل فئة يمكن أن تجد فيها تعصبًا أو عدوانية لأن اختيار المهنة نفسه يدل -فى الأغلب- على أن من يختارها يحمل قلبًا رحيماً ويميل إلى المساعدة أكثر من ميله إلى المواجهة أو العنف، ثم عند ممارسته لمهنته فهو أبعد الناس عن العنصرية لأنه يعالج أى مريض مهما كانت هويته، فهو يتعامل معه كإنسان يحتاج المساعدة بصرف النظر عن أى اعتبارات سياسية أو عرقية أو اجتماعية. ومع كل هذه الاعتبارات نجد أن "جولدشتاين" الطبيب اليهودى يقبل على هذه الجريمة البشعة بإصرار شديد ووعى كامل بدليل أنه غير خزينه بنديته مرتين حسب رواية شهود العيان. والرجل ليس

مجنوناً كما يدعون فالمجنون لا يستطيع أن يقوم بعمل شديد التنظيم والتعقيد والتخطيط كهذا العمل، وإنما المجهود في جرائم المجانين أنها تكون ردود أفعال عشوائية يفعلها الشخص وهو مرتبك ومضطرب، أما "جولدشتاين" فقد فعل جريمته بتخطيط وتنظيم وتنسيق مع أشخاص آخرين - كما جاء في شهادة الكثيرين - ونحت غطاء من الجيش الإسرائيلي، ثم قتلوه بعد ذلك لتختفى معه آثار الجريمة على طريقة عصابات السلب والنهب والاختيال.

نعود فنقول: إذا كانت فئة الأطباء في المجتمع الإسرائيلي على هذا القدر من التعصب والقسوة فما بالك ببقية فئات هذا المجتمع.

ولو سلمنا جدلاً بأن الرجل مجنون فإن الجريمة التي أقدم عليها في لحظة جنونه تدل على الاتجاهات والنوايا الكامنة في المجتمع الذي يعيش فيه فهو يعبر عن جوهر المجتمع الإسرائيلي بلا زيف أو خداع، وفي هذا على زعم صحته - دلالة على أن بداخل كل إسرائيلي رغبة تدميرية للمسلمين حتى في قمة مسالمتهم أثناء السجود.

ولقد شاءت الأقدار أن يأتي هذا الحدث بعد حوالى شهر من مؤتمر علمي عقد بدار الافتاء بالقاهرة تحت عنوان: "حل الصراع". ولقد كان الاتجاه العام هو أن المؤتمر يناقش قضية علمية نفسية واجتماعية وهي كيفية حل الصراعات النفسية والاجتماعية بالطرق الصحية التي تحفظ للمجتمع تماسكه. وكانت قيمة هذا الموضوع تدرك من خلال ما تتعرض له المجتمعات العربية والإسلامية من صراعات وفرقة تمزق وحدتها. ولكن فوجئ الجميع بحضور مكثف لليهود في هذا المؤتمر (على المنصة وفي قاعات الاجتماع) وسعيهم لتحويل المؤتمر لخدمة أهدافهم السياسية فقد كانوا يطالبون العرب والمسلمين بنسيان الصراعات مع اليهود وتقبلهم والتعايش معهم في سلام على أرض فلسطين وفي أى مكان. واتهم بعضهم الفرصة وراح يتحدث عن حق اليهود في فلسطين وكان يردد بعض نصوص التوراة في وقاحة شديدة وهو يرتدى قبعته التي يعلن بها عن هويته المتعصبة في حين كانت كلماته وكلمات إخوانه اليهود تدعو إلى تذويب الهويات الدينية والقومية تحت شعار الأخوة الإنسانية. وليكتمل العمل الدرامي فقد قامت سيدة تبلغ من العمر حوالى ٧٥ سنة وذكرت بأنها عاشت أربع سنوات في معسكرات اعتقال النازي، ومع ذلك فهي لا

تحمّل في قلبها أى كراهية لأحد ولذا لم تدر أن تحب المسلمين وأن يحدو حدوها وينسوا ما فات ويحبوا اليهود ويتعايشوا معهم تحت مظلة الأخوة الشرق أوسطية الإنسانية.

وإبان هذا المؤتمر انطلقت أقلام العلمانيين العرب -وكانهم كانوا على موعد- لتبشر بعهد جديد من المحبة والتآخي والتعاون مع الإسرائيليين وأن ننسى ما فات ونبدأ صفحة جديدة وأن نتخلص من عقدنا النفسية (لحن العرب) ونفكر بعقول مفتوحة تناسب النظام العالمى الجديد. وللأسف صدق الكثيرون من السذج ذلك الوهم حتى صفعهم "جولدشتاين" الطبيب الصهيونى.

٦ - الحمام والصقور

لم يكن بيريز قد غسل يديه بعد من دماء أطفال لبنان بل كانت أشلاؤهم تغطي وجهه وملابسه، ومع هذا ذهب إلى فرنسا ليفتح ساحة التسامح.. وكان يمسك بالمقص في يده اليمنى ليقص الشريط فرأيت رقاب الأطفال والشيوخ والنساء تتساقط من بين حدى المقص، والفرنسيون من حوله يصفقون، فيرد عليهم بيريز بابتسامة تقطر دماً (وتساعحاً).

لقد رأينا هذا المشهد الهزلى فى أول مايو ١٩٩٦ ونقلته وكالات الأنباء إلى أنحاء الدنيا عبر الشاشات السوداء. ولا يملك الإنسان أمام هذا المشهد العجيب أى تفسير أو تبرير أو تحليل اللهم إلا إذا كان بيريز وحلفاؤه لا يعتبرون العرب والمسلمين آدميين، لذلك فقتلهم الجماعى بهذه الوحشية لا ينقص صفة التسامح لدى بيريز ولا يستحق الأسف أو التوارى أو الخجل، فالناس لا يلومون الجزار على ذبحه للخراف!!.

ولكنك مع هذا تقف منبهراً من قدرة هذا الإرهابى (الحقيقى) على الابتسامة وهو يقتل، وعلى قدرته على الحديث عن التسامح وافتتاح ساحة له وهو يدوس رقاب الأطفال تحت أقدامه ويقطع أجسادهم.. ما هذه القدرة؟! .. وما هذا التبجح؟!.. هل يشك فى ذاكرة الناس إلى هذه الدرجة...؟! إن شاشات تليفزيون العالم مازالت حتى هذه اللحظة تعرض مناظر بشعة للقتل والتدمير على أيدى بيريز فى لبنان... تلك المناظر التى لا يستطيع الإنسان أن يتحمل رؤيتها فيضطر إلى الإشاحة بوجهه رعباً وهلعاً وحزناً وألماً.

وإن كان بيريز يشك فى ذاكرة العرب ويردد ما رددته ديان من قبل من أن العرب لا يقرأون، وإذا قرأوا فإنهم لا يفهمون، وإذا فهموا فإنهم سرعان ما ينسون.. إذا كان هذا الافتراض صحيحاً لديه فهل يتوقع أن يكون النسيان لديهم بهذه السرعة الجنونية؟!.. وإذا كان الأمر كذلك فعلاً فهلا فكر فى ضمير العالم الذى اهتز لمذبحة "قانا" وهو يرى قطع الأطفال المتناثرة تجمع فى أكياس من البلاستيك، أو يرى الأب وهو يحمل طفله ذات الشهرين من عمرها وقد مزقت

جسدها إحدى قذائف بيريز، وينظر إلى أطفاله الخمسة الباقين وقد قطعتهم قذائف بيريز داخل السيارة.

ما هذه الجراءة الوقحة (أو الوقاحة الجريئة) التي تتحمل هذا التزييف الإعلامي الصارخ وتنقله إلى العالم أجمع؟ وهل فتش الفرنسيون في العالم كله فلم يجدوا شخصية جديرة بالفتاح ساحة التسامح لديهم إلا شخصية بيريز وفي هذا التوقيت بالذات؟.. وهل اضطربت الموازين والمفاهيم في الحضارة الغربية إلى هذا الحد المخيف؟.. وهل كان هذا التوقيت لافتتاح ساحة التسامح مصادفة أم أن هناك ترتيبات مسبقة بحيث يتيح ذلك تجميل وجه بيريز وغسل يديه (وقدميه) في ساحة التسامح بباريس؟.. أم أن للتسامح عندهم معنى آخر لا نعرفه؟

ولكن لو استدركنا الأمر قليلاً فسنجد أنه ليس من حقنا أن نتعجب، فنحن أول من صدق بيريز في حديثه المعسول (المسموم) عن السلام وعن التسامح ونسيان الماضي وعن الرفاهية وعن الانتعاش الاقتصادي الشرق أوسطى وعن بدأ صفحة جديدة ننسى فيها الحروب والأحزان. والعجيب أن بعضنا صدقه على الرغم من أن خناجره مازالت مغروسة في بطوننا، بل والأعجب من ذلك أننا ظللنا نطلق صيحات السلام ونعدل مواليقنا الواسعة لتكون ملائمة لمرحلة ما يسمى بالسلام في الوقت الذي يحرق فيه بيريز أطفال لبنان ويحاصر شعب فلسطين حصار تجويع وإذلال.

ولنحشى أن نكون قد أصبحنا أضحوكة للعالم، فقد قام شيراك بزيارة عدد من العواصم العربية مبشراً بمد اليد الفرنسية فسارعنا وقبلناها، وأطلقنا الزغاريد وأضأنا الشموع.. فتشجع الرجل وطلب منا أن نحتفل بذكرى الحملة الفرنسية على مصر فهي (في نظره) كانت بداية التعاون المشترك والالتقاء الحضاري بين الغرب والشرق. وقد قال ذلك بكل جرأة وهو يعتقد أننا نسينا شهداءنا من الأبطال والعلماء الذين ذبحهم نابليون، وأنا نسينا كل محاولات المسخ الثقافي والتشويه والاختراق الذي مارسه الاستعمار على اختلاف جنسياته حتى هذه اللحظة، ولكن يبدو أن الجميع يراهن على ضعف ذاكرتنا.

إن تعبير "تزييف الوعي" لا يستطيع أن يصف ما يحدث، فلو أن ثمة وعي ناق لحسب حسابه هؤلاء الناس، ولكنهم يتصرفون وهم متأكدون أننا في حالة خدر

ومسات عميق، وأن ذاكرتنا قد ماتت من زمن بعيد، وأنهم قد برمجوا ما تبقى لنا من عقل فأصبحنا ننطق بما ينطقون ونردد ما يقولون، ونعمل ما يحلو لهم ويحقق مصالحهم.. ونهرول... ونبتطح.. ونزحف على البطون.
فليهنأ بيريز... وليضحك شيراك .. وليصفق العالم العربى والإسلامى هما وهما يفتتحان ساحة التسامح فى فرنسا.

الفصل الرابع

الصهيونية حالة بارانويا

١- الصهيونية حالة مرضية

نخلص من تناولنا السابق لطبيعة النشأة لليهود والصهاينة، وكذلك سمات ومحددات الشخصية الصهيونية ونتائج وانعكاسات وتأثيرات تفاعلها مع العالم من حولها، إلى أنها حالة مرضية "بارانويا" وتبرير ذلك فى ضوء التحليل العلمى النفسى التالى :

نجدت إسرائيل فى ظروف خاصة (بمساعدة أمريكا) فى محور صفة العنصرية التى التصقت بالصهيونية فى ملفات الأمم المتحدة رغم أن خصائص الحركات العنصرية تنطبق بالكامل على سلوك إسرائيل منذ قيامها وحتى هذه اللحظة أكثر مما تنطبق على أى حركة عنصرية أخرى. والصهيونية هى التجسيد السياسى والاجتماعى للفكر اليهودى الوضعى وليس للديانة اليهودية.

وإذا ابتعدنا عن السياسة وضروراتها وأحكامها وتحيزاتهما وانتهازيتهما ونفعيتهما، وحاولنا رؤية الصهيونية من جانب آخر أكثر موضوعية والتزاماً، وهو الجانب العلمى، فإننا نستطيع أن نرصد الملاحظات التالية :

• حين يعتبر اليهود أنفسهم شعب الله المختار، ويدعون تميزاً على سائر البشر، لا لشئ فعلوه ولكن لمجرد النسب وطبيعة الخلق (حسب تصورهم الخاص)، وهم يتصرفون طبقاً لهذا الاعتقاد، فينظرون إلى بقية البشر على أنهم "خراف ضالة" أو أنهم "الحمير التى يركبها بنو إسرائيل"، وهذا الاعتقاد فى وجود فئة من البشر متفوقة على بقية الناس بطبيعة الخلق أو النسب، لا نجد له فى المجال العلمى أثراً من الصحة، فالبشر جميعاً قد خلقوا ولديهم إمكانيات عقلية وجسدية متقاربة، وبقدر ما ينجحون فى استغلالها وتوجيهها يتفوقون، وأن هذا التفوق ليس حكراً على لون أو جنس بالذات، ويتأكد هذا المفهوم من واقع التاريخ الإنسانى من خلال دورة الحضارات على مر العصور فى الأجناس المختلفة. لذلك فاعتقاد اليهود الصهاينة فى التفوق والتميز علمياً يُصنف على أنه اعتقاد وهمى خاطئ، وهو ما يسمى فى الطب النفسى بالوهامات (Delusions)، ويمكن أن نرى هذا الموقف بوضوح بشكل مواز فى مواقف مريض البارانويا الذى يعتقد أن لديه قدرات خارقة، وأنه -وحده- يستطيع توجيه البشر وقيادتهم، وأنه يمتلك الأراضى الشاسعة والشوارع المهمة ووسائل النقل، وهو الذى كتب الموسوعات ووضع النظريات وبنى الأهرام... إلخ.

• واليهود الصهاينة بناءً على التصور السابق فى التميز والتفوق يلازمهم شعور دائم

بالاضطهاد لأنهم يعتقدون أن بهيمة البشر يظلمونهم ويحقدون عليهم ويفارون منهم، ومنعونهم حقوقهم المشروعة في امتلاك كل شيء والسيطرة على كل شيء. ولا يخفى هذا الشعور بالاضطهاد في كل أدبيات اليهود القديمة والحديثة. وهذا الموقف مواز لموقف مريض البارانويا الذي يشكو من اضطهاد الناس له نظراً لغيرتهم منه وحقدهم عليه ومحاولة إيذائه وتبعه ومراقبته.

• والبناء الفكري الذي تقوم عليه الصهيونية ملئ بالأساطير والأفكار الخرافية وشبه الخرافية. ولا يستطيع أى عالم أن يتقبل أو يهضم هذا التراث الفكري الخرافى نظراً لما يتضمنه من تشوهات معرفية يصعب قبولها بالمنطق العلمى أو التاريخى الموضوعى. وهذا التشوه يجعل اليهود في حالة اغتراب دائمة بعيداً عن النسق الإنسانى العام لأنهم يعيشون حالة فكرية خاصة جداً وغريبة جداً.

• والعوامل السابقة كلها أدت إلى عزلة اليهود حسياً ومعنوياً، فهم غالباً لا ينصهرون في المجتمعات التي يعيشون فيها، بل يتجمعون في حارات وشوارع وأحياء خاصة بهم كلما تيسر لهم ذلك. ويفضلون عدم دخول أحد في الديانة اليهودية ويعيشون حالة وجدانية ودينية شديدة العزلة وشديدة الخصوصية وبعيدة عن إمكانية التفاعل فضلاً عن التعايش مع الآخرين. وهم رغم ما عالوه تاريخياً من هذا الموقف البارانوى المنعزل إلا أنهم غير قادرين -على ما يبدو- على تغييره، والمثل الأوضح على ذلك إصرارهم على أن يتلغوا أرض فلسطين ويتجمعوا فيها وهم محاطين من كل الناحية بتجمع بشرى عربى وإسلامى هائل وغاضب ورافض لهم. وبكل المقاييس التاريخية والحضارية والمنطقية لا يمكن أن يستمر هذا الكيان الضئيل حضارياً وعددياً وتاريخياً، ولكن مع هذا يواصل اليهود سلوكهم النمطى الانتحارى المدمر المبني على تشوهات معرفية خرافية.

• واليهود -رغم ادعائهم للذكاء والواقعية- إلا أن تتبع تاريخهم القديم والحديث يوضح خطأ حساباتهم وانفصاهم عن الواقع، وقد سبب لهم ذلك الكثير من النكبات في مراحل تاريخية مختلفة، وعلى سبيل المثال: عدم قدرتهم على الاقتناع بحتمية انتصار رسالة محمد صلى الله عليه وسلم والتعايش معها كواقع، مما أدى بهم إلى محاولات متكررة للوقعة والخيانة والمكر رغم وجود معاهدات للتعايش بينهم وبين المسلمين، وانتهى الأمر بطرد بنى قينقاع من المدينة، ولم يعوا الدرس فعاودوا نفس سلوكهم المدمر فأدى ذلك إلى طرد بنى النضير، ولم يعوا الدرس وحاولوا الخيانة العظمى في غزوة الخندق مما استوجب قتل رجال بنى قريظة وسبى نساءهم، ولم يعوا الدرس فعاودوا للتآمر في خيبر، وكانت النهاية الحتمية طردهم

(بسبب أفعالهم) من الجزيرة العربية، ولم يكن ذلك بسبب نظرية عنصرية نحوهم وإنما كانوا يدفعون -هم بأنفسهم- الأحداث دفعا نحو هذا المصير. وفي التاريخ الحديث نلاحظ عدم قدرتهم على التكيف والتعايش مع المجتمعات مما أدى إلى كراهية كثير من الشعوب والحكومات لهم ولبذهم إياهم.

• وأكبر انفصال عن الواقع يعيشونه هذه الأيام تحت وهم إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، والتي تدل كل الوقائع التاريخية والحضارية على استحالة قيامها واستمرارها وقد استطاعوا من خلال مساعدة أمريكا لهم تكوين قوة عسكرية ضخمة أربهاوا العرب بها وأجبروهم على الاعتراف بإسرائيل وأجبروهم على قبول التعايش مع هذا الكيان الاستعماري من خلال معاهدات سلام قامت على الترغيب والترهيب ولم تقم على العدل والإنصاف، وحين كان قطار السلام على وشك الوصول للنهاية إذا بهم ينكصون ويضيعون هذه الفرصة التاريخية السانحة لهم ليعيشوا بسلام مع جيرانهم رغم اغتصابهم للأرض، وإذا بشارون يذهب في حراسة ثلاثة آلاف جندي مدججين بالسلاح ليقترحم المسجد الأقصى وليستفز مشاعر ٢٥٠ مليون عربي ومليار مسلم في مشارق الأرض ومغاربها وليدمر عملية السلام وليعود الصراع من جديد ليستخدموا فيه كل وسائل العنف الوحشية ضد الأطفال والنساء والشيوخ. فهل يمكن وصف هذا السلوك بأنه سلوك بشري سوى، أم أن وضعه ضمن السلوكيات المرضية هو الأقرب إلى الصواب.

كل العلامات السابقة : الشعور بالعظمة، والشعور بالاضطهاد، والميل للانزوال والاغتراب، والتشوه المعرفي، والانفصال عن الواقع، كلها علامات مرضية تستحق العلاج من المجتمع الإنساني ككل، ولكن للأسف الشديد فإن النظام العالمي لا يتعاون في علاجها بل يمارس -في أحيان كثيرة- عملية تثبيت هذه الأعراض المرضية، وربما هذا هو سبب تأخر الشفاء.

٢- التميز وسيكولوجية الأقلية

لا يستطيع منصف أن ينكر وجود أسماء لامعة من اليهود فى العلم والفن والأدب والاقتصاد والسياسة. والأسماء كثيرة وكبيرة وكان لها تأثيرها البالغ فى مجالاتها بصرف النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا مع أفكارهم وتوجهاتهم، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر العالم النفسى الشهير فرويد مؤسس مدرسة التحليل النفسى وأتباعه إبراهيم وأدلر وستكل وفيرنزي وريكلىن وبلولر وفوريل وأساجيولى وكريلىن وإيتنجتون وجانيه ورانك وساخس، وعالم الاجتماع دوركايم، وعالم الاقتصاد ماركس، ومؤسس النسبية أينشتاين، والكاتب المسرحى الشهير آرثر ميللر والروائى فرانز كافكا، والروائى ألبرتو مورافيا... وغيرهم كثيرون يتربعون كرؤساء مجالس إدارة لكبريات الصحف ودور النشر العالمية، والبنوك والشركات العملاقة ويشكلون لوبى مؤثر فى كثير من المواقع الحساسة، فماذا يا ترى سر هذا التميز؟!... هل كونهم "شعب الله المختار" كما يدعون؟!... هل هى سمات مميزة يتفوقون بها على سائر البشر كما يروجون؟!!

فى الحقيقة لا هذا ولا ذاك، ولكنها سيكولوجية الأقلية تفعل فعلها مع اليهود كما تفعل مع غيرهم دون أى فرق. فحياة العزلة التى عاشوها فى كل المجتمعات مع إحساسهم بالاضطهاد وشعورهم بأنهم أقلية يعيشون تحت رحمة الأغلبية، كل هذا كان يشحذ هممهم ويطلق طاقاتهم الكامنة ويجعلهم عازفين عنترف والرفاهية ومتوجهين نحو عوامل القوة والتأثير فى العلم والمال والاقتصاد والفن والصحافة والإعلام، فى حين يركن أصحاب الأغلبية إلى شعورهم بالعزوة والأمان. ولو تابعنا التاريخ الشخصى لنوابغ اليهود لوجدنا هذا العامل "سيكولوجية الأقلية" قد لعب دورًا هامًا فى إظهار نبوغه.

يضاف إلى ذلك عامل آخر وهو قدرة اليهود على "صناعة النجم" حيث يلتقطون أى بوادر للنبوغ لدى أحدهم فيدفعونه إلى الصفوف الأمامية ويحيطون أفكاره بهالات من التعظيم ومنحونه أرفع الجوائز العالمية، ويروجون أفكاره على أوسع المستويات، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها التالى:

● فرويد: على الرغم من كونه طبيب نفسى وعالم نفسى مجتهد واسع المعرفة إلا أن هالات التعظيم أعطت أفكاره حجمًا أوسع بكثير مما كانت تستحقه، ونقلت أفكاره إلى مجالات الفن والأدب والسياسة، على الرغم من أن الكثير من اجتهادات فرويد تعرضت لانتقادات شديدة وموضوعية حتى من أقرب تلاميذه،

ولم يتبق من نظريته فى التحليل النفسى إلا القليل الذى مازال يلقى بعض القبول العلمى، أما باقى اجتهاداته فقد أصابها التصدع حتى فى حياته.

• كارل ماركس: لقد أحيطت أفكاره بهالات من التعظيم والتقديس حتى لقد وضعه بعضهم فى مصاف الأنبياء، وأعطيت نظريته الاقتصادية والسياسية فرصة هائلة للتطبيق فى المجتمعات الشيوعية، وما هى إلا سنوات قليلة فى عمر الزمن حتى انهار الكيان الشيوعى سياسيًا واقتصاديًا بسبب نظرية ماركس الفاشلة والعنصرية القائمة على الصراع بين الطبقات، وكان ثمن تطبيق النظرية سحق الملايين من البشر، وأيضًا ثمن الانهيار ضياع جيل كامل تربى على مبادئ هشة لم تثبت لاختبار الواقع.

• فرانز كافكا: أفردت الدعاية اليهودية صفحات هائلة فى الصحف تتحدث عن عبقرية كافكا الروائية وعن عظمتة فى حين أن النقاد الموضوعيين الذين لم يتأثروا بهذه الدعاية يرون أن كافكا روائى متواضع أخذ معظم قصصه عن التوراة ولا يستحق كل هذا الضجيج.

• الشاعر الإسرائيلى عجنون: لم يسمع به أحد حتى فى إسرائيل نفسها، ومع هذا منحوه جائزة نوبل.

• توماس مان: هو أستاذ الانتهازية اليهودية الذى لا يبارى، والحديث فى جدارة مان واستحقاقه لجائزة نوبل لا ينتهى، ومقالاته عن الصهيونية وإسرائيل والتضامن اليهودى أمور يعرفها القاصى والدانى، والأهم من ذلك كله ملكته الأدبية التى لم يستطع ناقد واحد أن يؤيدها تأييدًا غير مشكوك فيه، فقصاصه مبتذلة ركيكة مهلهلة، ومع ذلك، ولأنه يهودى وانتهازى نشيط، استطاع أن يفرض غطه الأدبى على دنيا الأدب. وبفضل دعاية الصحف والإذاعات اليهودية (الحفنى ١٩٧٣).

• ألبرتو مورافيا: يرى النقاد أنه كاتب سطحي ليست لديه القدرة على الحبكة الدرامية، وهو محدود الثقافة وضحل التفكير، ولكنه نال الشهرة والمجد بسبب انتمائه اليهودى.

وعلى الرغم من وجود الأسماء الفردية اللامعة إلا أن اليهود كأمة لا حضارة لها، فكل الأمم لها طُرُز فى الفن تُعرف بها للنظرة الأولى، فليس من أحد يخطئ التعرف على قطعة من الفن الفرعونى أو الهندى أو الصينى أو الأوروبى أو حتى الأفريقى الزنجى. وكذلك الأمر فى الأدب والفلسفة والموسيقى وغيرها. فأين الفن اليهودى فى كل هذا؟.. قد يقول المتعصبون منهم أنهم منحوا العالم ما هو أقوى من الفن، منحوه التوحيد والنبوة والكتب المقدسة والحياة الروحية المنظمة، وكل هذه

أمر قد سبق اليهود إليها، وأنهم -حتى في مملكتهم- قد عبدوا على تراث هذه الأمم فنهوه واغتصبوه. وما تزال البحوث الجادة تبين أن شرائع السومريين، وقانون حمورابي، وتوحيد إخناتون، وابتهالات مصر القديمة وإيران والهند، وملاحم الشرق قبل العبريين القدماء، كل هذه تنعكس على المرأة الإسرائيلية ناطقة بأصولها ومصادرهما (ظا ١٩٩٠).

وإذا كان اليهود على وجه العموم لديهم نوايا فرديون في مجالات مختلفة، فإن الإسرائيليين الذين يعتقدون الفكر الصهيوني يفتقرون إلى التميز في أى مجال من مجالات العلوم أو الفنون أو الأدب، فلم نسمع عن عالم إسرائيلي متميز أو فنان إسرائيلي له سمعة عالمية، وكل ما في إسرائيل من تقدم تكنولوجي قد انتقل إليها من دول المنشأ التي هاجر منها الإسرائيليون وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي وألمانيا، ولذلك نستطيع القول بأن التركيبة العنصرية المتعصبة دينيًا وعربيًا في إسرائيل لا تسمح بنمو إبداع إنساني أصيل في أى مجال من المجالات العلمية أو الفنية، ولذلك تعيش إسرائيل حالة من الناحية العلمية والفنية كما تعيش حالة على الآخرين من الناحية الاقتصادية.

٣ - نهاية إسرائيل حتمية نفسية

كما رأينا فى الفصول السابقة فإن حصاد الصهيونية فى إسرائيل: حلم ثبت زيفه، أسطورة تتعرى يوماً بعد يوم، تشتت، خوف، توجس، ضياع، اكتئاب، شك، تشاؤم، ضيق، مصير مجهول، عداوة مع كل المحيطين بإسرائيل... إلخ. ولكن لما كانت الصهيونية قائمة فى أساسها على الحقد فكراً، وعلى القتل والتخريب والتشريد والإجرام - فى حق الغير - فعلاً، فقد كان لابد وأن يكون آخر وأعظم حصاد لها، أن تصطدم - هى ذاتها - بجبال الحقد التى خلقتها فى الأرض، ثم لتسقط فى بحار الدم - دم الأبرياء من أصحاب الأرض - التى أراقها (فراج ١٩٩٩).

هذه هى النهاية التعيسة والطبيعية التى لابد وأن يتوقعها، الآن، وينتظرها عامة اليهود، وإن بدا أن عقلاءهم هم أكثر إدراكاً لها، وأيضاً أكثرهم استعجالاً لوقوعها. يقول "حاييم هزاز" : «إن الصهيونية ليست استمراراً، وليست علاجاً لمرضى، هذا هراء، إنما اقتلاع وهدم، إنها عكس ما كان، إنها النهاية» !! (حماد ١٩٩٦).

ويقول آخر أكثر قرباً من طين هذه النهاية:

«فعندما يدمر كل شىء فى البلاد، فلنسمع إذن من سيستخرج جوازات السفر، ومن سيهرب إلى خارج البلاد: اليمينيون؟ المغاربة؟ العراقيون؟ لا، سيهرب الإشكناز، وسيبقى السفاراد. ليس لهم من مكان يهربون إليه» !! (حماد ١٩٩٦).

والأمراض التى تصيب الأفراد أو تصيب الجماعات كانت دائماً حالات عارضة (حتى لو كانت مزمنة فإزمانها مؤقت إذا نظرنا إليها من خلال البعد التاريخي الأطول) لأن حالة الصحة هى الأصل. ولما كانت الصهيونية حالة مرضية فإنها حتماً ستزول مثلما زالت كثير من الأمراض حيث ثم تشخيصها بنجاح وعلاجها بفاعلية.

والحركات العنصرية على مر التاريخ انتهت واندحرت وكان آخرها العنصرية النازية التى نادى بها هتلر والنازيون لأن أى حركة عنصرية سيعتبرها الجسد الإنسانى إن أجلاً أو عاجلاً جرثومة أو جسم غريب يجب مقاومته أو لفظه. ولما كانت الصهيونية حركة عنصرية فلا بد وأن تزول وستحقق ذلك حين يكتشف المجتمع الإنسانى - بعد زوال الغشاوة - أن الصهيونية ليست حركة عنصرية فقط ضد العرب أو المسلمين وإنما هى ضد مصالح وصحة البشرية كلها.

إن الإحساس باليأس قد يؤدى فى النهاية إلى الفرار والهزيمة، ولكنه فى المراحل الأولى يؤدى إلى مزيد من العنف الفكرى الذى يؤدى إلى مزيد من الإرهاب

الفعلى، وكلما زادت المقاومة الفلسطينية زاد البطش إلى أن يصل المستوطن الصهيونى إلى اللحظة التى يدرك فيها أن العنف لن يجدى فتيلاً أمام المقاومة، وأن تحالف إسرائيل الاسرائيجى مع الولايات المتحدة والعالم الغربى لن يفيدها كثيراً فى محاولة قمع الفلسطينيين، وعندئذ سيمارس هذا المستوطن تحولاً إدراكياً إذ أنه لن يمكنه الاستمرار فى الادعاءات أمام نفسه بأن فلسطين هى وطن اليهود القومى وأنها أرض بلا شعب تنتظر عودته منذ آلاف السنين، عندئذ ستسقط الأسطورة وتبدأ النهاية (المسرى، جريدة الأهرام ٢٠٠٠/١١/٧).

«وإسرائيل ليست جنة الله فى أرضه - كما حاولوا تصويرها لليهود وللعالَم - وإنما هى شديدة الخلافات والخزانات الدينية والطائفية والعرقية، ثم تهب عليها عواصف الشك والتعالى والغطرسة والحقد وعدم الشعور بالأمان. ثم يذوب كل ذلك فى جيش واحد أمام عدو واحد، فلو حدث فرضاً، أن تحقق السلام مع إسرائيل نفسها ومع جيرانها، فإن المجتمع الإسرائيلى سوف يتفكك ويتباعد ويهربون من إسرائيل إلى أى دولة أخرى.. إلى أمريكا حيث ينعم اليهود بأجمل ما فى الدنيا... أو ألمانيا وبريطانيا وروسيا والأرجنتين.. فكثير من يهود إسرائيل يعيشون فى الجيش وفى المستوطنات.. وقد تعبوا وزهقوا وملؤا.. وكفروا بالديانة اليهودية التى فرضت عليهم الأرق والقلق والخوف وتسوس الأسنان وضغط الدم والانهيار العصبى» (أنيس منصور ١٩٩٩).

وإذا كان البعض يراهن على تحلل المجتمع الإسرائيلى فى حالة السلام، فإن هناك سيناريوهات أخرى أكثر واقعية لانهيار هذا الكيان العنصرى، ومنها حالة الخوف الدائمة فى حالة استمرار الصراع مما يدفع بالكثير منهم إلى الهجرة العكسية خارج إسرائيل هرباً من الجحيم المستمر وحالة القلق الدائمة التى لا يأمن فيها على نفسه ولا على أسرته. وهذه نتيجة طبيعية لوجود هذا الكيان العنصرى المتعالى العدوانى وسط هذا المجتمع البشرى العربى والإسلامى الهائل الراض لهذا الجسم الغريب فى جسده.

٤ - ليسوا سواء

إنه لمن الإنصاف أن ننبه أنفسنا ونبه القارئ الكريم أن ما سبق من السمات التي تحدثنا عنها في هذا الكتاب تنطبق بشكل خاص على اليهود الذين يتبنون الفكر الصهيوني ولا تنطبق بالضرورة على كل اليهود، فمنهم علماء موضوعيون ومنهم أدباء وفنانون مبدعون أضافوا الكثير للحضارة الإنسانية، ومنهم دعاة سلام رفضوا الجيء إلى فلسطين بل وهاجموا المشروع الصهيوني واعتبروه وصمة عار في جبين التاريخ اليهودي، ولعل مؤتمر الحاخامات في أوربا الذي رفض إقامة دولة يهودية في فلسطين دليل على ذلك.

إذن لتعميم الصفات السابقة على كل يهودي في العالم هو أمر خاطئ بالضرورة ويخالف المنهج العلمي، ولكن التعميم مقبول على كل يهودي حضر إلى إسرائيل وقبل أن يطرد فلسطينيًا من بيته ويقيم مكانه، وقبل بفكرة الترانسفير ومارس القهر والعنصرية والتعصب تجاه سكان البلد الأصليين، لذلك يسهل القول بأن كل يهودي مقيم بفلسطين الآن هو بالضرورة صهيوني تنطبق عليه كل الصفات السابقة لأنهم عينة منتقاة جاءت إلى فلسطين تحذوها أفكار عنصرية تعصبية عدوانية، ولذلك فالقول بأن بينهم مسالين أو دعاة سلام أو مديين قول يحتاج إلى مراجعة.

ورسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، رغم ما حدث من صراع مع بعض قبائل اليهود، إلا أنه لم يمارس العنصرية أو التعصب ضد كل يهودي بل بقي عدد غير قليل من اليهود بالمدينة (بعد جلاء بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة)، وكان أحدهم جاريًا للرسول وكان يؤذيه أحيانًا بإلقاء القاذورات أمام داره صلى الله عليه وسلم ومع ذلك حين مرض اليهودي زاره الرسول وواساه. وقد مات الرسول صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهون عند يهودي، وهذا يعنى وجود علاقات طبيعية وقوية بين المسلمين ممثلين في رسولهم وقائدهم وبين اليهود في مجتمع المدينة. وعاش اليهود كمواطنين لهم كل الحقوق وشغلوا مناصب عديدة ورفيعة في الدولة الإسلامية في مختلف مراحلها التاريخية، ولم يمارس ضدهم أى اضطهاد أو تطهير عرقي. ونحن نؤكد هذا حتى لا يقع البعض في نفس الخطأ الذي وقع فيه اليهود بأن غارس عنصرية مضادة فعادى كل يهودي دون بصيرة، فالأصل في الأمور أننا لا نعادى أحداً إلا إذا اعتدى علينا ويستوى في ذلك أن يكون المعتدى مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً أو بوذياً أو أى ديانة، فالعبرة هنا بالاعتداء وليس بالديانة أو العرق.

ولنأخذ بعض الأمثلة على خروج بعض الأصوات العاقلة على ذلك السلوك
الانتحاري الصهيوني:

يقول مارتن بوبر أحد المفكرين اليهود:

«لقد اقتصرت الديانة اليهودية من جذورها، وهذا هو جوهر المرض الذى
كانت أعراضه هى ولادة القومية اليهودية فى منتصف القرن التاسع عشر. وهذا
الشكل الجديد للرغبة فى الأرض هى الخلفية التى أدت بما استعارته اليهودية القومية
الحديثة من القومية الحديثة فى الغرب».

ويقول مخاطبًا اليهود:

«أنتم إذا ما تفاخرتم بأنكم مختارون بدلاً من أن تعيشوا فى طاعة الله، فإن
هذا ضرب من الغدر والخيانة» (بوبر ١٩٤٨).

وهذا جوداس ماجنيس رئيس الجامعة العبرية فى القدس يقول عند افتتاح
الجامعة فى عام ١٩٤٦:

«إن الصوت اليهودى الجديد يتكلم عبر فوهات البنادق .. وهذه هى
التوراة الجديدة لأرض إسرائيل .. لقد تكبل العالم بقيود جنون القوة المادية،
وليحفظنا الرب الآن من اقتياد اليهودية وشعب إسرائيل إلى هذا الجنون. إنها يهودية
ملحدة تلك التى طغت على جزء كبير من الشتات القوى. وكنا نعتقد زمن
الصهيونية الرومانتيكية، أن صهيون ينبغى اقتادها بالاستقامة والنزاهة. ويتحمل جميع
يهود أمريكا مسئولية هذه الغلظة وهذا التحول... حتى من لم يوافقوا على تصرفات
الإدارة الملحدة، ولكنهم ظلوا قاعدين مكتوفى الأيدي. إن تخدير المعنى الأخلاقى
يؤدى إلى الضمور والهزال» (بتويس ١٩٥٤).

وفى عام ١٩٣٨ أدان ألبرت أينشتاين العالم الشهير صاحب نظرية النسبية
التوجه الصهيونى الداعى إلى إقامة دولة يهودية بقوله:

«فى رأى فإن من المعقول أكثر التوصل إلى اتفاق مع العرب على أساس
حياة مشتركة ومسالمة، بدلاً من إنشاء دولة يهودية. وإن إحساسى الذاتى بالطبيعة
الجمهورية لليهودية يصطدم بفكرة دولة يهودية لها حدودها، وجيشها ومشروعها
للسلطة الدينية مهما كانت متواضعة. وأخشى من الخسائر الداخلية التى قد
تتكبدها اليهودية بسبب قيام قومية ضيقة فى صفوفنا.. وإننا لم نعد يهود عصر
المكابى. ومجرد أن نصبح أمة بالمعنى السياسى للكلمة يساوى أننا سنحيد عن روحانية
طائفتنا التى ندين بها لأبائنا» (مينوهن ١٩٦٩).

٥ - ليسوا وحدهم

ربما تكون السمات السابقة قد تجمعت وتكثفت فى الشخصية الصهيونية بشكل جعلها علمًا عليها، ولكن هذا لا يمنع وجود بعض هذه السمات أو جلها فى مجتمعات بشرية أخرى وفى مراحل مختلفة حين تتبنى هذه المجتمعات نفس الأفكار العنصرية العدوانية وتشكل توجهاتها وسلوكياتها بوحى منها، فهذه السمات هى فى النهاية تشوهات معرفية ووجدانية وسلوكية وهى بالتالى اضطرابات نفسية يمكن أن تصيب أى مجموعة من البشر ينحرف فكرها وتحوصل فى ثنايا شخصيتها معتقدات التفرد والرجسية والعنصرية والتعالى على بقية البشر. ويبدو أن هذه الأفكار تبهر بعض الناس فى أى مجتمع بشرى فينادون بها فى قومهم محاولين إحياء نعرات دينية أو قبلية أو عرقية وغالبًا ما يجدون ملبين لدعوتهم خاصة فى فترات القهر وانسحاق الهوية حيث تكون هناك ميول تعويضية للخروج من الشعور بالدونية إلى الشعور بالاستعلاء أو التعالى. والنازية الألمانية فى القرن العشرين وما نتج عنها من حربين عالميتين (قتل فى الأولى عشرون مليونًا وفى الثانية خمسة وأربعون مليونًا) خير مثال على ذلك.

إذن فهذه الصفات تظهر من وقت لآخر فى أى مجتمع بشرى كوباء تهىء له وتساعد على انتشاره ظروف معينة، ولكن ما يلفت النظر أن هناك فرقًا بين ظهور هذه الصفات فى مجتمع ما كمرض عابر فى مرحلة تاريخية بعينها سرعان ما يتعافى منه ذلك المجتمع، وبين أن يتأصل هذا المرض ويصبح مزمنًا، بل يصبح غمط تفكير وغمط سلوك متكلس وراسخ، وهذا ما حدث للشخصية الصهيونية حيث طال أمد المرض فتأصل وتكلس، وتحوصلت جرائمه فى ثنايا هذه الشخصية. لذلك نستطيع القول بأن هذه السمات المرضية التى استعرضناها فى هذا الكتاب متمركزة فى الشخصية الصهيونية كجسم سرطانى، ولكن هذا لا يمنع من انتشار خلاياها السرطانية فى أى مجتمع بشرى آخر، وهذا ما حدث بالضبط فى الدعوة النازية العنصرية حيث كان النموذج اليهودى للعنصرية والاستعلاء ماثلاً أمامها فاقبسته ووظفته وطورته. والغريب فى الأمر أن يكون اليهود أنفسهم هم أول من يكتوون بنار العنصرية النازية التى كانوا هم أساتذتها وملهميها.

ولا ينسى أى عاقل حين يتدارس سمات الشخصية الصهيونية (التي شقوا بها وأشقوا بها غيرهم) أن ينظر فى نفسه ويفتش عن مثلها ويحاول علاجها من أقرب طريق. ومن الحمق أن نمارس جميعًا عملية الإسقاط فنلقى على تلك الشخصية المريضة كل عيوبنا وأمراضنا دون أن ننتبه لحاجتنا الشخصية للوقاية والعلاج، وربما حاجة مجتمعاتنا أيضًا.

وإننا نخشى أن يؤدي وجود وضغط العنصرية الصهيونية إلى نشأة عنصرية
مقابلة تحت أسماء عربية أو إسلامية خاصة تحت تأثير القهر والسحق والإذلال الذي
يمارسه الكيان الصهيوني كل يوم ويشاهده الجميع على شاشات التلفزيون.
فالعنصرية مرض بغيض آيا كان مصدره أو جنسه أو دينه.

وها هو روجيه جارودي في مقدمته لكتابه "الأساطير المؤسسة للسياسة
الإسرائيلية" يحذر الجميع من هذه الأمراض بقوله:

«هذا الكتاب (إشارة إلى كتاب الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) هو
تاريخ الهرطقة. وهو تاريخ يكمن في جعل الدين أداة للسياسة بإضفاء القداسة عليها
عن طريق قراءة حرفية وانتقائية للكلام المنزل. وهذا هو المرض القاتل في نهاية هذا
القرن الذي سبق لي أن عرّفته لدى المسلمين في كتابي "عظمة الإسلام والمخطأه"
مجازاً بأن أغضب كل من لا يحبون أن أقول: "إن مسيح بولس ليس هو المسيح
عيسى". وأنا أحارب هذه النزعة الآن لدى اليهود في كتابي: "الأساطير المؤسسة
للسياسة الإسرائيلية" مجازاً بأن أثير ضدى عواصف الصهاينة - الإسرائيليين الذين لم
يعجبهم أن يذكرهم الحاخام هيرش بأن: "الصهيونية قضت بأن يصبح الشعب
اليهودي كياناً قومياً... وتلك هي الهرطقة» (جارودي ١٩٩٦).

الفصل الخامس

المآل والعلاج

المآل والعلاج

يتضح من الفصول السابقة أننا أمام حالة مرضية مزمنة استمر مرضها قرونًا طويلة وعجز الكثير من الأنبياء والمصلحين عن علاجها علاجًا جذريًا. ولكن المرض قد استفحل الآن كما لم يستفحل من قبل وتركز في جسم سرطاني هو الكيان الصهيوني الذي يقبع على أرض فلسطين مهد الرسائل السماوية العظيمة، وهذا السرطان ملئ بالبثور والبؤر الصديدية (المستوطنات - المستعمرات). ونتيجة لأخطاء في الحسابات السياسية قامت أمريكا بمساندة هذا الجسد السرطاني وأمدته بكل أنواع السلاح حتى السلاح النووي. وخطورة الأمر تكمن في أن هذا الكيان العنصري العدواني تتحكم فيه مجموعة من المتطرفين الذين تمتلئ رؤوسهم بكل أنواع الأساطير والخرافات التي يلبسونها ثوب القداسة الدينية، وهم يستخدمون كل ذلك لتحريك المجتمع الإسرائيلي تبعًا لما في رؤوسهم من انحراف. وهذه القوى الظلامية تشجع وصول قادة متهورين طائشين إلى مراكز السلطة والتأثير.

والنتيجة لهذه التركيبة، هي نفس النتيجة التي واجهها العالم من قبل حين سكت عن العنصرية النازية الهتلرية فدفع الجميع الثمن غاليًا. ويبدو أن سكوت العالم عن ما يحدث في إسرائيل سيؤدي إلى كارثة بشرية يدفع ثمنها العالم كله، وربما يدفع من ساعدوا هذا الكيان ثمنًا أغلى من غيرهم.

إذن فالقضية ليست قضية فلسطينية أو عربية أو إسلامية. ولكنها أزمة بشرية عامة تؤذن بكارثة إنسانية ربما تطيح في لحظة طيش بمكتسبات الحضارة البشرية، ولهذا فالتصدي لهذا المرض الصهيوني مسئولية كل إنسان يعيش على هذه الأرض كل حسب قدرته بمن فيهم اليهود أنفسهم، بل ربما يكون اليهود العقلاء في كل مكان في العالم أولى بالمبادرة بالعلاج قبل وصول الكيان الصهيوني إلى لحظة الانتحار وهو حقيقة في طريقه إليها بما يفعله من سلوك طائش.

فواجب علماء الدين اليهود أن ينقدوا الديانة اليهودية من أن يلوثها الساسة الفاسدون البراجماتيون وأن يحفظوا هذه الديانة روحانياتها ورسالتها القائمة على ربط الناس بربهم وإطلاق قوى الخير والحب والرحمة بداخلهم، وهذا هو هدف الرسائل السماوية جمعاء.

وواجب علماء النفس اليهود -وهم كثر- أن يتحلوا بالشجاعة، ويوضحوا

لأهليهم من اليهود أن الأساطير والخرافات ما هي إلا تشوهات معرفية تقود إلى تشوهات وجدانية وسلوكية، وأن غريزة العدوان لديهم تحتاج إلى تهذيب حتى لا تدمرهم أنفسهم، وأن التعصب والعنصرية وادعاء التميز ما هي إلا أمراض تحتاج لعلاج مخلص وطويل.

وعلى العالم الغربى أن يراجع نفسه قبل فوات الأوان فى فكرة زرع إسرائيل وسط العالم العربى لأهداف سياسية أو دينية، فإن الوحش الإسرائيلى الآن يهدد الجميع بما فيهم حلفائه الغربيين، والحقم الإسرائيلى والتطرف الصهيونى سيقضيان على كل شئ ولا يبقى إلا الخراب للعالم كله شرقه وغربه. والتعامل مع هذا الكيان المرضى يتطلب توعيته وإخراجه من غيبوبته الفكرية وإعادة تأهيله ليندمج ضمن الأسرة البشرية وقبل ذلك نزع أسلحته الفتاكة التى ربما تنطلق فى لحظة طيش بيد سياسى مغامر أو حاخام متطرف ليهدم المعبد على رؤوس الجميع.

أما العرب والمسلمون فهم الجزء المهم من الجسد البشرى الذى يحيط ويتخلل هذا الكيان، ووجود هذا الكيان المرضى بينهم فرصة لهم لاستعادة عافيتهم واستنهاض هممهم التى خارت فى عصور الترف والرفاهية والكسل. فدخل الفيروس لآى جسد يحمل إمكانية تنشيط جهاز المناعة لمحاصرة ذلك الفيروس وحوصلته وكف أذاه. وربما يقوم العرب بدور محاصرة المرض ومقاومته إلى أن يفيق العالم كله وينتبه إلى الخطر القادم إليه عبر العنصرية الصهيونية، ولن يستطيع العرب القيام بهذا إلا إذا امتلكوا وسائل القوة الروحية والمادية، فالكيان الصهيونى ككيان له طبيعة بارانوية لا يخنث ويتقوقع إلا إذا واجهته القوة والسيطرة بصوت أعلى من صوته وبأس أشد من بأسه.

ونجاح العلاج فى النهاية مكسب لكل البشر وأولهم اليهود لأن العلاج إنقاذ لهم من السلوك الانتحارى الذى مارسوه عبر كل العصور وإنقاذ لليهودية من تلوثها بفساد السياسيين والمغامرين الدمويين، وإنقاذ للبشر جميعًا من كارثة محققة.

المراجع العربية

القرآن الكريم: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المملكة العربية السعودية

الكتاب المقدس، العهد القديم: دار الكتاب المقدس بمصر، الإصدار الثالث ٢٠٠١، الطبعة الأولى، القاهرة

إدريس، جلاء (١٩٩٦): صورة اليهودية الشرق في الأدب العبري المعاصر، مجلة عالم الفكر، يناير ١٩٩٦

المنسرى، عبد الوهاب (٢٠٠٠). الحلم الصهيونى تم تفويضه، مقال بجريدة الأهرام، ٧ نوفمبر صفحة ١١.

الرفاعى، جمال أحمد (١٩٩٦). إشكالية الاندماج الطائفى فى شعريه يهود الشرق فى إسرائيل، مجلة عالم الفكر، يناير - مارس ١٩٩٦.

الحفنى، عبد المنعم (١٩٧٣). اليهودية فى ضوء التحليل النفسى. ترجمة عربية لكتاب موسى والتوحيد لمؤلفه فرويد. مطبعة الدار المصرية، القاهرة.

إيدى، وليم (١٩٥٤). روزفلت وابن سعود (عن كتاب الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل لروجيه جارودى، دار الغد العربى).

بادى، جوزيف (١٩٦٠). القوانين الأساسية لدولة إسرائيل، نيويورك ص ١٥٦. بتويش، نورمان (١٩٥٤). من أجل صهيون. سيرة دواىس ماجينس. فيلادلفيا، منشورات الجمعية اليهودية فى أمريكا.

بوبر، مارتن (١٩٤٨). إسرائيل والعالم. نيويورك.

بيرفيت، آلان (١٩٩٠). الفيجارو، ٥ نوفمبر

بيجين، مناحم (١٩٧٨). العصيان: تاريخ الأرجون. ص ٢٠٠.

جارودى، روجيه (١٩٩٠). إسرائيل بين اليهودية والصهيونية. ترجمة حسين حيدر، الطبعة الأولى، بيروت.

جارودى، روجيه (١٩٩٦). الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية. ترجمة عن الفرنسية قسم الترجمة بدار الغد العربى، القاهرة.

حماد، أحمد (١٩٩٦). اتجاهات محاربي ١٩٤٨ تجاه الوجود الصهيوني في فلسطين من خلال دراسة رواية الروائي الإسرائيلي "يزهار سميلانسكى"، مجلة عالم الفكر، المجلد الرابع والعشرون، العدد الثالث، يناير-مارس ١٩٩٦ ص ١٦٧.

حماد، أحمد (١٩٩٦). الاغتراب في الأدب العبري المعاصر. مجلة عالم الفكر، عدد يناير، ص ٤٩.

حمدان، جمال (١٩٩٦). اليهود أنثروبولوجيا. القاهرة

ديان، موشيه (١٩٩٧) جيروزاليم بوست، ١٠ أغسطس.

شلبى، عبد الجليل (١٩٩٧). اليهود واليهودية. كتاب اليوم، دار أخبار اليوم، قطاع الثقافة.

ظاظا، حسن (١٩٨٧). أبحاث في الفكر اليهودي. الطبعة الأولى بيروت.

ظاظا، حسن (١٩٩٠). الشخصية الإسرائيلية. الطبعة الثانية، دار القلم، دمشق.

عبد القادر، حسين (١٩٩٣). موسوعة علم النفس والتحليل النفسى، الطبعة الأولى، دار سعاد الصباح.

فرويد (١٩٥٥). موسى والتوحيد. الترجمة العربية بعنوان "اليهودية في ضوء التحليل النفسى"، ترجمة عبد المنعم الحفنى، الدمياطى للنشر والتوزيع، القاهرة.

فراج، على مسعد طه (١٩٩٩). إسرائيل .. إلى أين؟. الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة.

قنديل، شاكر (١٩٩٣). موسوعة علم النفس، والتحليل النفسى. دار سعاد الصباح.

كوهين (١٩٨٦). التلمود، باريس، ص ١٠٤.

منصور، أنيس (١٩٩٩). مواقف. جريدة الأهرام، ١٧/١/١٩٩٩.

مينوهن، موشى (حاخام) (١٩٦٩). المحلل اليهودية في زمننا.

نلسون، توماس (١٩٦٧). أظهار ماساشوششتس اليهودية. المجلد السادس عشر، رقم ٢، (عن كتاب روجيه جارودى: السياسة المؤسسة لدولة

إسرائيل ١٩٩٦ - دار الغد العربى).

هاهر (١٩٧٩). مناحم بيجن: الرجل والأسطورة. نيويورك.
هرتزل (١٩٥٨). روزيلوم وجويش ليوزليتز. نيويورك ، نوفمبر ١٩٥٨ .
هيكل، محمد حسنين (١٩٩٦). المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل. الكتاب
الأول: الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية. القاهرة.

المراجع الأجنبية

Albert M (1914). Le Crime Rituel chez les Juifs; Paris.

Cecil R (1953). A short history of the Jewish people, London. Plate 79.

Eugene Pittard (1924). Les Races et L'Histoire, Paris.

Gyges (1956). Les Juifs dans la Société Francaise: Paris, p 28-29.

Max L. and Alexander Marx (1930): Histoire du Peuple Juif; Paris.

٣	- تقديم
٧	- مقدمة
١٣	الفصل الأول : طبيعة النشأة وأصول التسميات
١٥	١- طبيعة النشأة
	٢- أصول التسميات : العبرانيون، الإسرائيليون، اليهود، اليهودى التائه، التوراة، اليهودية بين القومية والديانة، الصهيونية
١٦	الفصل الثانى : سمات ومحددات الشخصية الصهيونية
٢٧	والعوامل المؤثرة فيها :
٣٣	١- سمات الإله وسمات اليهود
٣٧	٢- اليهود والأسطورة
٣٩	٣- التشوه الإدراكى
٤١	٤- شعب الله المختار
٤٥	٥- عقدة الاضطهاد
٥٠	٦- العزلة
٥٣	٧- الهاجس الأمنى... حالة إدراكية مرضية
٥٥	٨- الاغتراب
٥٩	٩- الصراع الطائفى
٦٢	١٠- العنصرية
٧٠	١١- التعصب
٧٤	١٢- طريق يشوع: غريزة العدوان والإبادة
٨٠	١٣- الإرهاب
٨٣	١٤- صورة البطل (شمشون)
٨٦	١٥- التحريف
٨٨	١٦- المراوغة

الفصل الثالث : انعكاسات سمات الشخصية الصهيونية

٩١ فى التعامل مع الآخر عبر العصور

٩٣ ١- الشخصية الصهيونية والاختراق الفيروسي

٩٨ ٢- الشخصية الصهيونية وحتمية الصراع

١٠١ ٣- العداء للسامية

١٠٥ ٤- قتل الأنبياء والمصلحين

١٠٨ ٥- جريمة باروخ جولد شتاين: الحدث والدلالات.

١١١ ٦- الحمام والصقور

١١٥ الفصل الرابع : الصهيونية حالة بارانويا

١١٧ ١- الصهيونية حالة مرضية

١٢٠ ٢- التميز وسيكولوجية الأقلية

١٢٣ ٣- نهاية إسرائيل حتمية نفسية

١٢٥ ٤- ليسوا سواء

١٢٧ ٥- ليسوا وحدهم

١٢٩ الفصل الخامس : المآل والعلاج

١٣٣ المراجع العربية

١٣٦ المراجع الأجنبية

منتدى سور الأذربكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://www.facebook.com/books4all.net>

• رقم الإيداع : ١٣٤٨٢

• التقييم الدولي : 9 - 19 - 5929 - 977